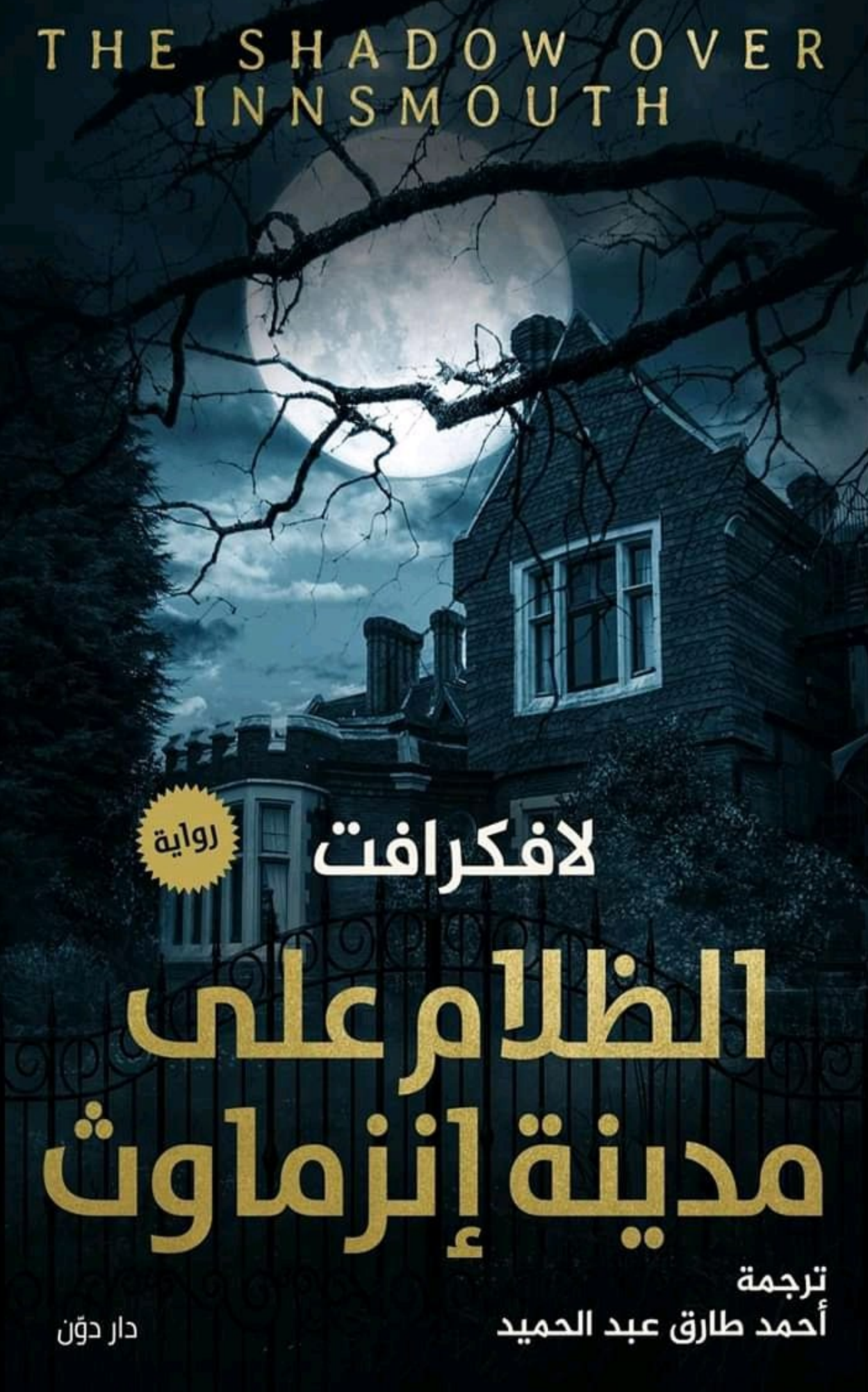

رواية

لافكرافت

الظلام على مدينة إنزماوث

ترجمة
أحمد طارق عبد الحميد

دار دوّن

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الظلام على مدينة إنزماوث

هوارد فيليبس لافكرافت: الظلام على مدينة إنزماوث ، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٢٧٩٩ - الترقيم الدولي: 978-977-806-084-3
جَميـع حُـقـوق الطبْـع والنُشر محْـفُوظة للناشر
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.
© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

هوارد فيليبس لافكرافت

الظلام على مدينة إنزماوث

رواية

(١)

أقام مسئولو الحكومة الفيدرالية في شتاء ١٩٢٧-٢٨ تحقيقًا سريًّا غريبًا في ظروف خاصة بميناء ماستشوستس القديم في إنزماوث. لكن العامة لم تعلم به حتى فبراير، عندما دارت العديد من المداهمات والاعتقالات، ثم قامت الحكومة -وفق الاحتياطات الملائمة- بإحراق عدد هائل من البيوت، التي كان يُفترض أنها خاوية ومتداعية ينخر في جوانبها السوس، ونسفها بعد ذلك بطول واجهة المدينة المهجورة. ولم يشغل الناس الذين لا يهتمون بتقصّي الأمور أنفسهم بهذه الحادثة، بل تركوها تمر كأي شجار في حانة.

أما متابعو الأخبار الأكثر حماسًا، فقد أثارت فضولَهم

كميةُ الاعتقالات الهائلة والقوةُ البشرية الضخمة المستخدمة فيها والسريّة فيما يخص نقل السجناء. لم تُسجَّل أي محاكمات أو تهم محددة، ولم ير أحدٌ أيًّا من المحبوسين بعد ذلك في سجون الدولة المعروفة. كانت هناك تصريحات غامضة عن وباء ما وعن معسكرات اعتقال، ثم عن استنفار في السجون البحرية والعسكرية، إلا أن الأمر لم يَنجلِ قط عن أي شيء حاسم. ظلت إنزماوث خالية من السكان تقريبًا، ولم تظهر بها حتى الآن إلا مجرد علامات تدل على عودة الحياة ببطء مجددًا.

لاقت العديد من شكاوى المنظمات الليبرالية نقاشًا سريًّا، وتم اصطحاب ممثلين عنها لزيارة معسكراتٍ وسجونٍ بعينها. فأصبحت هذه الجمعيات نتيجة ذلك -بصورة مدهشة- سلبيّة ومتكتمة. أما أمر رجال الصحافة فكان أصعب، لكنهم أبدوا استعدادًا كبيرًا للتعاون مع الحكومة في النهاية. جريدةٌ وحيدة -موجز لا يُعتد به أبدًا بسبب سياسته الطائشة- أوردت ذِكرَ الغوّاصة التي غاصت إلى أعماق بعيدة وأطلقت طوربيداتها تحت اللجة البحرية خلف شعاب الشيطان المرجانية مباشرة. غير أن هذه الفقرة، التي

تضمنت بالمصادفة ذِكرَ مكان يرتاده الصيادون عادة، بدت بعيدة المأخذ إلى حد ما؛ فالشعاب المرجانية السوداء تمتد خفيضة المستوى لميل ونصف الميل خارج ميناء إنزماوث.

كان الناس يثرثرون كثيرًا حول المدينة وبالمدن القريبة فيما بينهم، لكنهم لا يتكلمون إلا بأقل القليل مع العالم الخارجي. ظلوا يتكلمون عن إنزماوث المحتضرة شبه المهجورة لما يقرب من قرن، فلم يعد ممكنًا أن يرد بشأنها شيء أكثر وحشية أو أشنع مما أَسَرُّوا به أو ألمحوا إليه فيما بينهم منذ سنوات. علمتهم الكتمان أسباب كثيرة، ولم يكن هناك داع لبذل مجهود في الضغط عليهم. كذلك لم يكن أحد منهم يعلم بالفعل إلا القليل، فبسبب المستنقعات المِلحيّة الشاسعة، الخالية والنائية، ظل جيران إنزماوث بعيدين عنها.

لكنني في النهاية سأخالف حظر الكلام بشأنها. إذ تؤكد النتائج، وأنا واثق من ذلك، أنه لا يمكن أن ينشأ ضررٌ عام، اللهم إلا رَجَّة النفور، من الألماح إلى ما اكتشفه أولئك الذين رُوِّعوا في إنزماوث. كذلك فقد يكون لما وجدوه أكثر من تفسير محتمل. وأنا لا أعلم بالتحديد مقدار ما حُكي من

القصة الكاملة حتى لي أنا، ولديّ من الأسباب الكثير الذي يمنعني من الرغبة في سبر أغوار الأمر أكثر. لأنني كنت أقرب صلة بهذا الشأن من أي شخص عادي آخر، ولا زلت أحمل انطباعات تدفعني حتى هذه اللحظة للقيام بأمور متطرفة.

أنا الذي فررت مذعورًا من إنزماوث في الساعات الأولى من صباح ١٦ يوليو ١٩٢٧، ومَن تسبَّبَت استغاثاتُه المفزعة للحكومة بالتحقيق والتدخل في بداية الأحداث المذكورة برمتها. كنتُ على أتم استعداد أن أظل صامتًا وقتما كان الأمر جديدًا وغامضًا لا يزال؛ لكن بعدما صار الأمر الآن قصة قديمة، وتلاشى اهتمام العامة به وفضولهم، فإن لديّ رغبة جارفة غريبة للإفضاء بشأن تلك الساعات القليلة المروعة في ذلك الميناء سيء الذكر والمُظَلَّل بالشر، ميناء الموت والغرابة التي تُخرج المرء عن دينه. فحكاية ما حدث فقط ستساعدني على استعادة الثقة بقواي العقلية؛ وطمأنة نفسي مرة أخرى أنني لم أكن أول من يخضع لهلوسةِ كابوسٍ مُعْدٍ، وستساعدني كذلك على اتخاذ القرار فيما يتصل بالخطوة الرهيبة التي تقع أمامي.

لم أكن سمعت عن إنزماوث حتى اليوم السابق على

ذهابي إليها للمرة الأولى والأخيرة حتى الآن. كنت أحتفل ببلوغي سن الرشد بجولة في نيو إنجلاند -للاطلاع على معالمها السياحية وآثارها وأنسابها- وكنت قد خطّطت للاتجاه مباشرة من مدينة نيوبيريبورت إلى أركم، حيث تحدّرت عائلة أمي. ولأنني لم أكن أمتلك سيارة فقد كنت أتنقل بالقطار وبالترام وبالحافلات، باحثًا على الدوام عن أرخص الطرق الممكنة. في نيوبيريبورت أخبروني أن القطار البخاري هو وسيلتي للذهاب إلى أركم، وبينما كنت في مكتب تذاكر المحطة أحتجّ على غلاء الأجرة، طرقت إنزماوث سمعي لأول مرة. بدا الموظف الضخم الوجيه، الذي لا يشي أسلوب كلامه بأنه من أبناء البلدة، متعاطفًا مع جهودي في التوفير، فأبدى لي اقتراحًا لم يقدّمه أحدٌ من الناصحين قبله:

"بإمكانك أن تستقل هذا الباص القديم، على ما أعتقد، " قال ذلك بتردد لا شك فيه، "وإن كانت فكرة لا يحبذها أحد هنا، فهو يمر من إنزماوث -وربما طَرَقَ سمعَك شيءٌ عن ذلك- لذا لا يروق للناس استقلاله. يسوقه رجل من

إنزماوث -اسمه جو سارجنت- لكنه لا ينقل أيَّ زبائن من هنا، أو حتى من أركم، على ما أظن. أنا مستغرب أن ذلك الباص لا يزال يعمل أصلا. أعتقد أن أجرته زهيدة بشكل مناسب، لكن لم أر فيه يومًا أكثر من اثنين أو ثلاثة- وليس بينهم أحدٌ غير سكان إنزماوث. إنه يُغادر الميدان -من أمام متجر هاموند للأدوية- في العاشرة صباحًا والسابعة مساء، ما لم تكن المواعيد قد تغيرت مؤخرًا. إنه باص متهالك بشكل فظيع - ولم أصعد إليه قط. "

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن إنزماوث المظلمة على الإطلاق. وقد كانت الإشارة إلى مدينة لا تظهر على الخرائط الشائعة أو لا توجد بقوائم الكتيبات الإرشادية الحديثة كفيلة بلفت انتباهي، كما أن طريقة تلميح الموظف العجيبة قد أثارت بي شيئًا ما كالفضول الحقيقي. مدينة بإمكانها بث النفور بهذا الشكل في جيرانها تعتبر مكانًا نادرًا على ما أظن وجديرًا بانتباه السائحين، فإذا كانت قبل أركم فسأتوقف عندها، وهكذا طلبت من الموظف أن يخبرني بشيء من أمرها. وقد كان شديد التروي، يتحدث بطريقة

توحي بترفعه عما يقوله:

"إنزماوث؟ طيب، إنها نوع غريب من المدن، تقع بنهاية منفذ مانوكسيت. كانت على حد علمي مدينة حية -بها ميناء محترم قبل حرب ١٨١٢- حتى ذهب كل شيء أدراج الرياح في آخر مئة عام أو نحو ذلك. لا توجد بها الآن سكة حديد - ولم يمر خلالها قطار بوسطن وماين أبدا، وقد تخلَّى الناس عن الخط المتفرع من رولي منذ عدة سنوات.

"هناك مساكن خالية أكثر من الناس على ما أظن، وليس هناك عمل يُذكر غير صيد السمك وسرطانات البحر. وجميعهم يأتون غالبًا للتجارة إما إلى هنا أو إلى أركم أو إبسويتش. كانت لديهم ذات يوم بضع مصانع معدودة، لكن لم يعد هناك أي شيء قائم منها الآن، ما عدا معمل تكرير للذهب يعمل بأقل أنواع الدوام الجزئي.

"كان هذا المعمل، رغم ذلك، ضخمًا في البداية، وكان العجوز مارش، مالكه، أغنى من الملك كريسوس[1]، لكنه رجل مسن غريب وقبيح، ولا ينفك أبدًا عن داره. ويظن

(١) آخر ملوك ليديا، عاش بين ٥٦١ و٥٤٦ قبل الميلاد، استغل مناجم بلاده من الذهب في تكوين ثروته العظيمة وأصبح أسطورة للثراء الفاحش.

الناس أن شيئًا من قبيل المرض الجلدي أو التشوه قد تطور لديه مع تقدمه في العمر وأن هذا هو ما جعله يتحاشى الأنظار. إنه حفيد القبطان أوبيد مارش، الذي أسس هذه التجارة. ويبدو أن أمه كانت من الأجانب -يقال أنها من سكان جزر بولينيزيا- لذا أثار الناس ضجة عندما تزوج هو قبل خمسين عامًا فتاة من إبسويتش. هكذا يتعاملون دائمًا مع أهل إنزماوث، ويحاول الأهالي هنا وبالبلاد المجاورة دائمًا إخفاء أي دمٍ بينهم يتصل بإنزماوث. لكن أبناء مارش وأحفاده لا يختلفون في نظري عن أي شخص آخر. أشاروا لي نحوهم ذات مرة هنا - ومع ذلك، عندما فكرت بالأمر، لاحظت أن الأبناء الأكبر سنًا ما عادوا يظهرون بالجوار مؤخرًا. ولم أر الرجل العجوز قط.

«ولمَ هذه العدائية التي يكنها الجميع تجاه إنزماوث؟ سأخبرك يا صاحبي الصغير، لكن أولًا لا ينبغي عليك أن تعتمد اعتمادًا كبيرًا على ما يقوله الناس هنا. فمن الصعب أن يتكلموا، لكنهم إذا تكلموا لا يسكتون. إنهم لا ينفكون يقُصُّون أمورًا عن إنزماوث -يتهامسون بها غالبًا- منذ مئة

ء على ما أظن، ولعل هذا بسبب ذعرهم أكثر من أي شيء آخر. بعض هذه القصص ستجعلك تضحك - عن القبطان العجوز مارش الذي يدير الصفقات مع الشيطان ويجلب العفاريت من الجحيم للحياة في إنزماوث، أو عن نوع من عبادة الشيطان والقرابين البشعة في مكان ما قرب رصيف الميناء عثر الناس عليه حوالي ١٨٤٥ أو نحو ذلك- لكنني من بانتون، فيرمونت، ومثل هذه القصص لا أصدقها.

ينبغي عليك رغم ذلك أن تنصت لما يخبرك به بعض المخضرمين بخصوص الشعاب المرجانية السوداء خارج البقعة - يسمونها شعاب الشيطان المرجانية. إنها تظهر فوق الماء وقتًا طويلًا، ولا تبقى تحت سطحه كثيرًا، ولهذا لا يمكنك تسميتها جزيرة إلا بالكاد. يحكون أن جيشًا كاملًا من الشياطين يظهرون أحيانًا على تلك الشعاب المرجانية- وينتشرون بالأرجاء، أو يمرقون خلال نوع من أنواع الكهوف بقرب السطح. فهي وعرة لا استواء فيها، تمتد على مسافة ميل من الشاطئ، ولذا كلما اقتربت نهاية أيام الشحن اتخذ الصيادون منعطفات كبيرة لمجرد اجتنابها.

«أقصد الصيادين الذين لم ينشأوا في إنزماوث. إحدى مآخذهم على القبطان العجوز مارش أنه كان ينزل أحيانًا، على حد اعتقادهم، إلى هذه الشعاب في الليل بينما يكون المد والجزر معتدلًا. ربما كان يقوم بذلك فعلا، فتكوين الصخرة، ولا أخشى القول، كان مثيرًا للاهتمام، وربما كان بصراحة، وهي مجرد احتمالية، يبحث عن غنيمة قرصان، ولعله وجدها. لكنهم كانوا يتحدثون عن تعامله مع الجن هناك. حقيقة الأمر كله في ظني أن القبطان كان مسؤولًا في الواقع عن إثارة الشبهات حول تلك الشعاب المرجانية.

«هذا كله حصل قبل الوباء الكبير سنة ١٨٤٦، الذي قضى على نصف أعداد الأهالي في إنزماوث. لم يتمكنوا أبدا من معرفة المشكلة تماما، لكن ربما كانت نوعًا من الأمراض الأجنبية التي حملتها السفن من الصين أو من مكان آخر. وقد كان بلا شك سيئا كفاية - تسبب في حالة من الشغب، وعدد من الأعمال المريعة التي لا أعتقد أنها حدثت خارج المدينة أبدا - وخلَّف المكان في أبشع حال. ولم يتكرر أبدا - لا يمكن أن يتجاوز عدد الذين يعيشون هناك اليوم ٣٠٠ أو

٤٠٠ شخص.

«أما عن السبب الفعلي وراء شعور الأهالي ذلك فهو تعصب الطائفي ببساطة - ولا أقول أنني ألوم هؤلاء الذين يكنون ذلك الشعور، فأنا أكره أهالي إنزماوث أولئك عن نفسي، ولا أهتم بالذهاب إلى مدينتهم. وأحسبك تعرف - مع أني أستطيع أن أرى من هجتك أنك من غرب البلاد - ما الذي اعتادت أن تفعله الكثير من سفن نيو إنجلاند بالموانئ الغريبة في أفريقيا وآسيا وجنوب البحار، وبأي مكان آخر، وأي نوع غريب من الناس يعودون بهم من هناك. لعلك سمعت شيئًا عن «سالم» الرجل الذي عاد لوطنه بزوجة صينية، وربما تعرف أن مجموعة من أهل جزيرة فيجي لا يزالون في مكان ما حول كيب كود.

«لابد أن يكون شيء من هذا القبيل هو السبب وراء ما حدث لأهالي إنزماوث. لقد كان المكان دائما مقطوعا بشكل سيء عن بقية البلاد بسبب المستنقعات والنهيرات فلن نتمكن من التيقن بشأن تفاصيل الأمر المعقدة؛ لكن من الواضح تماما أن القبطان مارش كان قد جلب للبلد

بعض الشخصيات الغريبة عندما حصل على سفنه الثلاث في صفقة أيام العشرينات والثلاثينات. ولا شك أن أهالي إنزماوث اليوم يحملون نوعًا غريبًا من الصفات - لا أدري كيف أوضح ذلك لكنها تجعلك بطريقة ما تقشعر. ستلاحظ القليل من ذلك على سارجنت لو ركبت معه الباص. لبعضهم جبهة غريبة ضيّقة وأنوف مفلطحة وعيون جاحظة تلمع ولا يبدو أنها أُغلِقت أبدا وبشرتهم ليست بتاتا صحيحة، بل خشنة ومجروحة، وجوانب الرقبة رثة ومغضنة. وهم يصابون بالصلع في باكورة حياتهم. والأكبر سنا من بينهم هو أسوأهم منظرا - والحقيقة أنني لا أعتقد أني رأيت أبدا رجلا بلغ من طول العمر مثلهم. وأظن أنهم سيموتون حتما لو نظروا في المرآة! إن الحيوانات تكرههم - وكم اعتادوا على المشاكل مع الخيول قبل دخول السيارات.

«لن يكون لأحد هنا أو في أركم أو إبسويتش أي صلة بهم أبدا، فهم أنفسهم يتحاشون الناس في تصرفاتهم كلما أتوا إلى المدينة أو كلما حاول شخص الذهاب لصيد السمك على أراضيهم. ومن العجيب أن السمك يوجد بوفرة فائضة

على الدوام في مياه ميناء إنزماوث ولا يوجد منه شيء في أي مكان آخر حولها - جرب بنفسك أن تصيد السمك هناك وسترى كيف سيطاردك الأهالي للخارج! كانوا يعتادون القدوم إلى هنا في البداية بواسطة السكة الحديد - وبعدما تم إلغاء الخط الفرعي عنده أصبحوا يسيرون حتى يستقلوا القطار من رولي - لكنهم الآن يستقلون الباص.

«صحيح، هناك فندق في إنزماوث -اسمه «جيلمان هاوس»- لا أظن أنه يكلف الكثير. لكني لن أنصحك أن تنزل به. ومن الأفضل أن تبقى اليوم هنا وتستقل باص العاشرة صباح الغد؛ ومن ثم يمكنك أن تدرك باص المساء من هناك لأركم في الثامنة. كان هناك مفتش مصنع نزل في ذلك الفندق «جيلمان» منذ أعوام قليلة وكانت لديه ملاحظات لا تسر عن المكان. يبدو أن لديهم أناس غريبو الأطوار هناك، إذ كان الرجل يسمع أصواتا في الغرف الأخرى -مع أن معظمها خالٍ- وهو ما جعله يرتجف. وكان يظن الكلام أجنبيا في البداية، إلا أن الشيء المزعج على حد قوله كان يتعلق بذلك الصوت الذي يتحدث بين الحين

والآخر، فقد بدا غير طبيعي تماما -كأنه ينسكب، هكذا قال- حتى أنه لم يجرؤ أن يتخفف من ملابسه ويخلد للنوم، بل ظل ساهرًا وانطلق مغادرًا لا يلوي على شيء بمجرد طلوع النهار. وكان الكلام مستمرًا في الغالب طوال الليل.

«كان لدى هذا الرجل -واسمه كاسي- الكثير ليقوله بشأن مراقبة أهل إنزماوث له وعلى سيماهم نوع من الحذر. كما أنه وجد معمل مارش للتكرير مكانا غريبا- يقع في طاحون قديم عند مصبات مياه مانوكسيت السفلية، وقد تطابق وصفه مع ما سمعته بنفسي من قبل: كتب رديئة الشكل، ولا شيء يذكر بشكل واضح عن أي نوع من التعاملات. أنت تعرف أن الأمر كان على الدوام يشبه اللغز، فمن أين يأتي أبناء مارش بالذهب الذي يكررونه، بينما لا يبدو أنهم يقومون بالكثير من الشراء في هذا المجال، وإن كانوا قد قاموا منذ سنين مضت بشحن السفن للخارج محملة بكم هائل من السبائك.

«كان هناك حديث معتاد عن النوع الغريب من الجواهر الذي يبيعه البحّارة والعاملون بمعمل التكرير اختلاسًا، أو ذلك الذي كان يُرَى مرة أو مرتين على نساء آل مارش. كان

الناس يأخذون في اعتبارهم أن يكون القبطان أوبيد تاجرًا بها في ميناء وثنيٍّ ما، خاصة منذ صار يأمر على الدوام بأكوام من الخرزات والحلي الزجاجية مثل التي اعتاد رجال البحرية أن يحصلوا عليها في المقايضات المحلية. وأعتقد آخرون ولا زالوا عند اعتقادهم أنه وجد مخبأ قرصان قديم على شعاب الشيطان المرجانية. غير أن الطريف فعلا في هذا الأمر هو أن القبطان العجوز كان قد مات منذ ستين عامًا، ولم تكن أية سفينة ذات حمولة جيدة قد غادرت المكان منذ الحرب الأهلية، لكن على المنوال نفسه ظل آل مارش يشترون القليل من تلك البضائع التجارية -التي كانت غالبًا حليًا زجاجية ومطاطية رخيصة الثمن- كما قيل لي. وربما كان أهالي إنزماوث يحبونها ليتمكنوا من النظر إلى أنفسهم، فقد صاروا على درجة من السوء تضاهي والله أعلم متوحشي بلدان جنوب البحر وبربريي غينيا.

«لا بد أن يكون طاعون ٤٦ قد حصد أزكى الدماء في ذلك المكان. وعلى كل حال، توجد الكثير من الشكوك الآن، وليست أسرة مارش والأثرياء الآخرين أسوأ من

غيرها. وكما سبق وأخبرتك فلا يوجد على التقريب أكثر من ٤٠٠ شخص في المدينة كلها بغض النظر عن كل الشوارع التي يقال أنها هناك. وأحسب أنهم من النوع الذي يسميهم الناس في الجنوب «القمامة البيضاء»: لا قانون يردعهم، ماكرين، يُضمرون ملء جوفهم الخفايا. إنهم يقومون بجمع كميات من السمك وسرطان البحر ويبيعونها للخارج بالشاحنات. وما أشد غرابة احتشاد السمك هناك دون أي مكان آخر.

"إن أحدا لا يستطيع تتبع أي منهم كذلك، فموظفو المدرسة الحكومية والتعداد السكاني يعانون الأمرين في القيام بذلك. ولا شك أن ذوي الفضول من الغرباء غير مرحب بهم في إنزماوث. وقد سمعت بأذني أن أكثر من رجل أعمال أو موظف حكومي قد اختفوا هناك، وثمة كلام غير ثابت أن أحدهم قد أصابه الجنون وأنه يهيم الآن على وجهه في دانفرز. لابد أنهم عرضوه لفزع رهيب.

"لهذا كله ما كنت لأسافر ليلا لو كنت مكانك. وإن لم أكن ذهبت إلى هناك يوما وليست لي رغبة في ذلك، إلا

أنني لا أظن جولة بالنهار ستضرك - وإن كان الناس في هذه الأنحاء سينهونك عن الذهاب إلى هناك. لكن إذا كنت سائحا يبحث عن معالم المدن ويتطلع إلى اكتشاف الأشياء التي تعود إلى الأزمان القديمة فإن إنزماوث بلا جدال مكان يناسبك تماما. "

وهكذا قضيت قطعا من الليل في مكتبة نيوبيريبورت العامة أبحث عن معلومات تتعلق بإنزماوث، فعندما حاولت أن أسأل المواطنين في المتاجر والمطاعم وورش العمل والمطافي وجدتهم كما توقعت أعنت في بدء الحديث من قاطع التذاكر، ولديهم نوع من الكتمان المشوب بالارتياب، كأن ثمة ضلال في أي شخص يكن لإنزماوث اهتمامًا كبيرًا، فبينما كنت أقف عند جمعية الشبان المسيحيين قام عامل بتحذيري في إيجاز من الذهاب إلى مثل هذا المكان الكئيب الفاسد، وكذلك اتخذ الناس في المكتبة سلوكًا مشابهًا إلى حد بعيد. كانت إنزماوث، كما هو واضح لعين المتعلم، مجرد حالة مبالغ فيها من حالات تدهور المجتمعات المدنية.

ولم تكن تواريخ "مقاطعة إسيكس" في رفوف المكتبة

تتضمن إلا القليل جدا، فلم تذكر سوى أن المدينة قد تأسست عام ١٦٤٣، واشتهرت بصناعة السفن قبل الثورة، كعرش للازدهار البحري العظيم في مطلع القرن ١٩، وكمركز صناعي صغير يستغل مانوكسيت كمصدر للقوة في آخر القرن. وقد تم التعامل مع الوباء والشغب في ١٨٤٦ على نحو خفيف غير ناجع، كما لو أنهم كانوا يصمون المقاطعة بالعار.

كانت الإشارات إلى الانهيار قليلة، وإن كانت دلالة التقرير اللاحق لا تخطئها العين. انحصرت الحياة الصناعية برمتها بعد الحرب الأهلية في شركة مارش للتكرير، كما شكلت تجارة سبائك الذهب الجزء الوحيد المتبقي من التجارة الرئيسية إلى جانب صيد السمك الموجود منذ الأزل، والذي يقل عائده أكثر فأكثر مع انخفاض سعره ودخول الشركات الضخمة واسعة النطاق في المنافسة، غير أنه لم يحدث قط أن قل السمك في ميناء إنزماوث. ونادرًا ما استطاع الغرباء الاستقرار هناك، وكانت هناك أدلة محجوبة ومتكتم عليها بشأن عدد من البولنديين والبرتغاليين الذين

حاولوا الإقامة في إنزماوث فتم تشتيتهم بطريقة متطرفة وغريبة تمامًا.

أما أكثر الأمور تشويقا بحق فكان هذا الإلماح الخاطف إلى النوع الغريب من الجواهر المرتبط في غموض بإنزماوث، والذي كان يثير إعجاب المناطق الريفية برمتها بمقدار غير قليل، كما ورد أن عينات منه موجودة في متحف جامعة ميسكاتونيك بأركم، وفي غرفة العرض بجمعية نيوبيريبورت التاريخية. وكانت الأوصاف المتفرقة لهذه الأشياء بسيطة ومبتذلة، إلا أنها بثت بداخلي تيارا خفيا من الشعور الغريب الذي لا يتوقف. شيء ما بشأنها بدا شديد الغرابة والإثارة لم أستطع إخراجه من رأسي، وعلى الرغم من تأخر الوقت نسبيًا فقد قررت أن أرى النموذج المحلي بعيني -والذي يقال إنه كبير، ومصنوع بأبعاد غريبة، بغرض أن يكون تاجا على ما يبدو- إذا ما أمكن الترتيب للأمر.

أعطتني أمينة المكتبة ورقة تعريف بالقائم على الجمعية، كانت آنسة تدعى آنا تيلتون وتعيش بالجوار، وبعد توضيح موجز كانت السيدة الطاعنة في السن من اللطف أن قادتني

إلى المبنى الذي كان مغلقا، لما لم يكن الوقت قد تأخر تماما بعد. كانت هناك بالفعل مجموعة مرموقة من التحف، إلا أن عينيَّ كانتا مقصورتين في وضعي الحالي على الشيء العجيب الذي يتلألأ في خزانة أحد الأركان تحت الأضواء الكهربائية.

لم يتطلب الأمر حساسية مفرطة تجاه الجمال ليجعلني المشهدُ حرفيًّا مبهور الأنفاس أمام هذا الجسم الخياليّ الغريب المثالي الرائع المختلف ذي الفخامة، الذي يستقر هناك على وسادة مخملية قانية الحمرة. فحتى الآن أجد من الصعوبة وصف ما رأيت، على الرغم من وضوح كونه نوعا من التيجان، كما ذَكرَت الأوصاف. كان طويلا عند المقدمة، ذي إطار كبير وغير منتظم بشكل غريب، كما لو أنه مصمم ليناسب رأسا ذات حافة بيضاوية عجيبة. بدا جوهره في الغالب من الذهب، على الرغم من البريق الخفيف والمثير للقلق، الذي يلتمع في خليط غريب مع معدن يثير في النفس انطباعا بالجمال والفزع على حد سواء. كانت حالته مثالية تقريبا، وكان باستطاعة المرء تمضية الساعات في دراسة التصاميم غير التقليدية الأخّاذة والمحيرة المحفورة

أو المصاغة على بروزات سطحه المرتفعة -بعضها هندسي بسيط، وبعضها بحريّ شديد الوضوح- بصنعة مهارة وموهبة لا تصدق.

صرت كلما أنظر إلى هذا الشيء يفتنني زيادة؛ وفي هذه الفتنة كان يكمن عامل مزعج ومثير للفضول يصعب تصنيفه أو تحديده. قررت في البداية أن الغرابة، أو بلفظ آخر نوعه الفني، هو ما أثار بي هذا الانزعاج. فكافة الآثار الأخرى التي كنت قد رأيتها إما تنتمي لتيار عرقي أو قومي معروف، أو تحديثية تتحدّى عن وعي كل تيار موجود. لكن هذا التاج لم يكن من هاتين الفئتين، وإنما ينتمي بوضوح إلى أسلوب مستقر وناضج بشكل مطلق، لكنه يظل أسلوبا بعيدا كل البعد عن أي تيار -شرقي أو غربي، قديم أو حديث- قد سبق وسمعت عنه أو رأيت له مثالا. كما لو كانت صَنعَةً تنتمي إلى كوكب آخر.

وبرغم ذلك تبصّرتُ سريعا أن لقلقي مصدر ثان ربما كانت له وجاهة الأول، يكمن في الإيحاء التصويري والرياضي للتصميم الغريب. كانت كل النماذج تُلمح إلى

أسرار دفينة وأغوار لا يمكن تخيلها في أي زمان ومكان، بينما تنذر الطبيعة المائية المنتظمة للنقوش بالشؤم. فمن بين تلك النقوش وحوش خرافية وصور منفرة كريهة وشر كامن - كأنها لنصف كائن بحري ونصف برمائي- والتي لا يستطيع المرء فصلها عن شعوره المزعج والمؤرق بذاكرة كاذبة، كما لو أنها تستدعي بعض الصور من الخلايا والأنسجة شديدة التجذر التي ورثتُ قوى تذكّرها عن الأسلاف بشكل بدائي مدهش. وكنت أحيانًا أتصور أن حواف كل نقش وثني من هذه النقوش السمكية-الضفدعية إنما كان يتدفق بجوهر شر مطلق مجهول ولا إنساني.

وعلى النقيض من منظر التاج كانت حكايته وجيزة ومبتذلة حسبما حكتها الآنسة تيلتون. فقد قام رجل مخمور من إنزماوث برهنه لدى أحد محلات شارع "ستيت" ١٨٧٣ مقابل مبلغ سخيف، ووجدوه مقتولًا بعد ذلك بوقت قصير في مشاجرة. حصلت عليه الجمعية مباشرة من الراهن لتمنحه على الفور عرضًا يليق بمنزلته، كما كانوا يصنّفونه على أنه من أصل شرقي هندي أو هندي صيني، وإن كانت

هذه النسبة مؤقتة في الواقع.

لكن الآنسة تيلتون كانت تميل، وهي تقارن كل الفرضيات الممكنة بخصوص أصله ووجوده في نيو إنجلاند، إلى الاعتقاد بأنه جزء من كنز أحد القراصنة الأجانب الذي قام باكتشافه القبطان العجوز أوبيد مارش. ولم يكن هذا تفسيرًا ضعيفًا بالتأكيد إذا كنت على علم بشأن العروض الملحة لشرائه مقابل مبلغ كبير والتي كانت تطرحها أسرة مارش بمجرد علمهم بوجوده، وهي العروض التي لا يزالون يعيدون طرحها إلى هذا اليوم على الرغم من قرار الجمعية غير القابل للجدال بعدم بيعه.

وبينما كانت السيدة الطيبة تصحبني لخارج المبنى أوضحت أن نظرية القرصان الذي يكمن وراء ثروة مارش تجد رواجها بين عقلاء الناس في الإقليم. أما موقفها تجاه إنزماوث الكئيبة -والتي لم ترها قط- فكان ينم عن اشمئزاز من انحدار المجتمع إلى ذلك المستوى من قاع الثقافة، وأكدت لي أن شائعات عبادة الشيطان كان يبررها وإن بشكل جزئي دينٌ سريٌّ غير مألوف اكتسب نفوذه هناك وتغلغل داخل

الكنائس الأرثوذكسية.

كان يسمى، كما قالت، "أخوية داغون السرية"، وقد كانت بدون ريب عقيدة زائفة، أشبه ما تكون بالوثنيَّة، اتَّخذوها عن الشرق منذ قرن، في ذلك الوقت التي بدت فيه مواقع الصيد بإنزماوث قاحلة، ثم أصبحت بعد ذلك بقليل ذات النفوذ الأكبر في المدينة، فاحتلت مكانة الماسونيين تمامًا واستولت تلك الأخوية على مراكز القيادة في القاعة الماسونية القديمة على كنيسة "جرين" الجديدة.

كل هذا كان يمثل للآنسة تيلتون التقية سببًا وجيها تماما لاجتناب مدينة الخراب والفساد العتيقة، لكن الأمر لم يكن يمثل بالنسبة لي سوى حافز جديد. لقد أُضيف إلى حدسي المعماري والتاريخي الآن حماسٌ أنثربولوجي طاغ، فلم أستطع أن أنام في غرفتي الصغيرة في "واي" إلا لمامًا، بينما ستارُ الليل تبلى جوانبُه.

(٢)

قبيل العاشرة صباح اليوم التالي كنت أقف بحقيبة سفري الصغيرة أمام متجر دواء هاموند بميدان السوق القديم أنتظر باص إنزماوث. وباقتراب ساعة وصوله انتبهت إلى نزوع المتسكعين نحو أماكن أخرى داخل الشارع، أو نحو مطعم "ايديال لانش" عبر الميدان. ومن الواضح أن عامل التذاكر لم يكن يبالغ بشأن النفور الذي يحمله السكان المحليين من إنزماوث وأهلها. وخلال دقائق معدودات دوَّى أتوبيس صغير متهالك ذو لون رمادي قذر بآخر شارع "ستيت"، وانعطف ثم توقف تدريجيا بجانبي. شعرت للتو أنه الذي أقف في انتظاره؛ وهو التخمين الذي تأكدت منه سريعا

عندما استطعت بالكاد قراءة اللافتة الموضوعة على الزجاج الأمامي "أركم- إنزماوث- نيوبيريبورت".

لم يكن هناك سوى ثلاثة من المسافرين على متنه -رجال سود شعرهم منكوش، متجهمون، وفي محياه نضارة ما من الشباب- ترجلوا بتثاقل عندما توقفت المركبة وشرعوا يزرعون الطريق إلى داخل شارع "ستيت" بطريقة صامتة وماكرة إلى حد بعيد. هبط السائق كذلك، وراقبته وهو يتوجه لمتجر الدواء لشراء شيء. فكرت أنه بالقطع جو سارجنت الذي ذكره عامل التذاكر؛ وقبل أن ألحظ ولو أي من تفاصيل هيئته غمرتني موجة من البغضاء التلقائية التي لم أستطع فحصها أو تبريرها. وداهمتني فكرة بدهية تماما هي أن السكان المحليين لن يرغبوا بالضرورة في استقلال باص يمتلكه ويقوده هذا الرجل، أو أن يزوروا أي موطن لمثل هذا الرجل وأهله أكثر من المحتمل.

وعندما خرج السائق من متجر الدواء نظرت إليه بتدقيق أكبر محاولا تحديد منبع هذا الانطباع المشئوم الذي أصابني. كان الرجل نحيلا، محدودبا، أقصر من ستة أقدام

بقليل، يرتدي ملابسا زرقاء مدنية رثة ويضع كاب جولف مهترئ على رأسه. قد يكون في الخامسة والثلاثين من عمره، لكن التجاعيد الغريبة التي تغطي جوانب رقبته تجعله يبدو أكبر سنًا عندما يكف المرء عن تأمل وجهه البليد الخالي من التعابير. كما كانت له جبهة ضيقة وعينين جاحظتين رطبتين لونهما أزرق تبدوان كما لو كانتا لا تغمضان، وأنف مفلطح، وجبهة مسحوبة للوراء كذقنه، وأذنين فريدتين لم تنموا بشكل كامل. بدت شفته الطويلة الغليظة والوجنات الرمادية ذات المظهر الخشن خالية بشكل كامل من الشعر، ما عدا بعض الشعيرات الصفراء المتفرقة التي تجاهد وتلتف في مناطق غير منتظمة التكوين؛ وفي مواضع يبدو سطحها مضطربا بشكل شاذ، كما لو أنها قشور من أثر مرض جلدي. يداه كانتا طويلتان نافرتا العروق، ولهما مسحة زرقة رمادية غير طبيعية. أما الأصابع فكانت قصيرة بشكل لافت من ناحية التركيب بالنسبة للمعصم، وبدت نازعة إلى الالتفاف بشكل محكم إلى باطن الكف الضخم. ولاحظت عند عودته إلى الباص طريقة مشيه المتثاقل العجيبة ورأيت أن قدميه

كانتا متضخمتين بشكل مفرط. وكلما تأملتهما تعجبت كيف يشتري لهما أحذية ملائمة.

أما ما ضاعف من نفوري بالتحديد فمظهر الرجل الزيتي، كان مظهره يوحي أنه يعمل بلا شك في أحواض سمك أو يتسكع حولها كثيرا حتى يتسنى له جلب هذا القدر الكبير من روائحها المميزة. لم أكن أستطيع أن أخمن فقط أي دماء أجنبية كانت تجري فيه. إذ لم تشبه سماته الغريبة بالقطع أي من السمات الآسيوية أو البولينيزية أو المشرقية أو الأفريقية، وأستطيع أن أرى الآن لم يعتبرهم الناس من عالمًا آخر. أما أنا، عن نفسي، ففكرت بدلا من ذلك أنهم ربما تعرضوا لتدهور بيولوجي.

شعرت بالأسف عندما رأيت أن أحدًا غيري لن يستقل الباص. فبشكل ما لم أحبذ فكرة أن أسافر وحدي مع هذا السائق. لكن بحلول وقت الانطلاق دفعت ارتيابي وركبت مع الرجل، ناولته دولارًا ثمن التذكرة وتمتمت بكلمة واحدة "إنزماوث". فنظر لي بغضول لمدة ثانية وأعاد لي أربعين سنتًا الباقية دون أن يتحدث. اتخذت مقعدًا بعيدًا وراءه، ولكن

في نفس الجانب الذي يجلس فيه من الباص، رغبة في مراقبة الشاطئ خلال الرحلة.

وأخيرا دارت المركبة المتداعية باهتزاز، وقعقعت بشكل مزعج وهي تتخطى مباني شارع "ستيت" القديمة في غيمة من البخار الذي أطلقه المحرك. كنت أرمق الناس على جوانب الطريق، وأظن أني اكتشفت فيهم رغبة مثيرة للفضول تتعلق باجتناب النظر إلى الباص -أو على الأقل ألا يبدو عليهم أنهم ينظرون إليه. ثم انعطفنا يسارا إلى الطريق السريع، حيث أصبح الانطلاق أسلس، مارقين من جانب دور الجمهورية الأولى الفخمة والعزب الاستعمارية القديمة الباقية، وعابرين منطقة "لوار جرين" ونهر باركر، وبارزين في النهاية على الامتداد الرتيب الطويل لشاطئ البلد المفتوح.

كان النهار دافئا مشمسا، غير أن مشهد الرمال وعشب البردى والشجيرات المتقزمة غدا أكثر امتدادا وإقفارا مع تقدمنا. وعندما صرنا أقرب ما نكون من الشاطئ تمكنت من رؤية المياه الزرقاء وخط رمال جزيرة "بلام" من النافذة، ثم مالت الجادة بنا عن الطريق السريع الرئيسي تجاه رولي

وإبسويتش. لم تكن هناك أية منازل على مدى البصر، وبإمكاني القول بناء على حالة الطريق أن حركة المرور كانت يسيرة في هذه النواحي للغاية. ولا تحمل أعمدة التليفون، التي عرّاها المناخ، سوى سلكين اثنين. وكنا نعبر بين الحين والآخر جسورا خشبية وعرة فوق نهير يضطرب في مده وجزره، يقطع البلدة تماما ليعزل المنطقة بشكل عام أكثر وأكثر.

وبين فترة وأخرى كنت ألاحظ جذوع أشجار مقطعة قد أصابها الموت وحطام أسوار مشيدة على منحدرات الرمال وأتذكر الاقتباس التراثي بإحدى كتب التاريخ التي قرأتها أن هذه الناحية كانت ذات يوم ريفا خصبا ومستقرا تماما. ثم تغيرت الأحوال، كما ذكرت، في التوقيت نفسه الذي اجتياح فيه الوباء إنزماوث سنة ١٨٤٦، وكان هناك اعتقاد لدى بعض الناس البسطاء أن ثمة صلة بين ذلك وبين قوى شيطانية خفية. لكن يبدو أن قطع الأشجار قرب الشاطئ بشكل طائش هو ما تسبب في الواقع بما حدث، فقد سلب هذا القطعُ التربةَ حمايتها المُثلى وتركها عرضة لموجات الرياح الرملية العاصفة.

وفي النهاية احتجبت عنا جزيرة "بلام" وبدأنا نرى الامتداد الواسع للمحيط الرحب على يسارنا. وأخذ طريقنا الضيق يتسلق منحدرا حادا، فانتابني قلق غريب وأنا أنظر إلى الذروة الوحيدة قبالتي حيث يلتقي الطريق الذي شقته عجلات المركبات مع السماء. وبدا كما لو كان الباص سيظل يصعد، تاركا أرض المفهوم بالكلية ليندمج في اللغز المجهول للأثير في الأعالي وفي سماء غامضة. اتخذت رائحة البحر مضامين فأل سيء، وأصبح السائق بظهره المحدودب اليابس وجبهته الضيقة أكثر إثارة للمقت عما سبق. وعندما نظرت إليه رأيت خلفية رأسه بلا شعر تقريبا مثل وجهه، تحتوي فقط على القليل من الشعيرات الصفراء التي تصر على البقاء فوق سطح رمادي تملؤه النتوءات.

وصلنا بعد ذلك إلى القمة ورأيت الوادي الممتد من خلفنا، حيث تلتحم مانوكسيت مع البحر شمال طابور المنحدرات الصخرية الطويلة مباشرة، والتي تبلغ ذروتها في "كينجسبورت هيد" وتحيد ناحية "كيب آن". وعلى الأفق الضبابي البعيد استطعت بالكاد تبين الجانب المشوش من

"هيد"، البلدة المتوجة بالمنزل العتيق الغريب الذي حيكت حوله الكثير جدا من الخرافات، عندئذ أسر انتباهي بالكامل ذلك المشهد البانورامي القريب أسفل مني تماما، وأدركت أنني كنت أواجه سيئة الذِّكر: إنزماوث المظلمة.

كانت مدينة ذات نطاق واسع وبنية مزدحمة، ومع ذلك فهي من المدن التي تندر فيها الحياة بشكل كئيب. نادرا ما يخرج من شبكة فوهات مداخنها خيط دخان واحد، أما أبراج الكنيسة الثلاث الطوال فتلوح للعيان وهي تواجه أفق البحر صارمة وعارية من الطلاء. قمة إحداها متهالكة وتخلو تجاويفها المظلمة كالأبراج الأخرى من أقراص الساعة. أما حشد السقوف المنحدرة والقمم المثلثة فتجسد لعينيك بعدوانية فكرة التعفن، وباقترابنا صار بوسعي الآن أن أرى بطول الطريق أسطحًا عديدة تهاوت تماما. بعض البيوت المربعة الكبيرة هناك كانت مشيدة على النمط الجورجي، لها سقوف متعددة الميول وقباب وشرفات مسيَّجة، كانت معظم البيوت في طريق قدومنا من جهة الماء تنعم بحالة جيدة، وبيت أو اثنين فقط بدوا في حالة لا بأس بها. ومن بين هذه البيوت

رأيت خط السكة الحديد المهجورة الصدئ يتمدد داخل البلدة وقد نما خلاله العشب، كما رأيت أعمدة التلغراف والتليفون مائلة ومجردة من أسلاكها الآن، ورأيت الممرات شبه المعتمة لطرق عربات الخيول القديمة إلى رولي وإبسويتش.

كان الخراب أسوأ ما يكون قرب البحر، ورغم ذلك استطعت أن ألمح وسطه تماما برج جرس مشيد من القرميد ومصان على أفضل حال ممكن ويبدو كمصنع صغير. كان الميناء، المسدود تماما بالرمال، مسيجا بصخور قديمة لصد الأمواج، استطعت أن أتبين عليها في تلك اللحظة القليل من الصيادين الجالسين، وعند نهاية امتدادها وجدت ما بدا كأساسات منارة مهجورة. تشكّل اللسان الرملي داخل هذه الحواجز ورأيت فوقه القليل من الأكواخ المتداعية وقوارب الصيد المربوطة وقدور سرطان البحر المبعثرة. وبدا أن المنطقة الوحيدة العميقة من ماء النهر إنما توجد حيث يتدفق في مروره بالبناء الذي يشبه البرج ثم ينحرف جنوبا ليصب في المحيط عند نهاية حواجز صد الأمواج.

برزت أنقاض رصيف الميناء هنا وهناك من حافة الشاطئ

حتى النهاية في فساد لا حد له، وبدت تلك الأنقاض التي بنهاية الجنوب هي الأكثر فسادا. وبعيدا في البحر لمحت، رغم المد العالي، خطا طويلا أسود لا يكاد يرتفع عن مستوى المياه ويحمل رغم ذلك إيحاء بكآبة دفينة غريبة. عرفت بالطبع أنه شعاب الشيطان المرجاني. وداهمني، عندما نظرت إليه، حسٌّ فضولٍ لطيف له يبدو إضافة فائضة على مقتي الضاري؛ وبشكل غريب بما يكفي، كان شعوري بهذه الإضافة فوق انطباعي الأوّليّ يشبه نغمة موسيقية زائدة مزعجة.

لم نقابل أحدا على الطريق، لكن بدأنا الآن نمر بمزارع مهجورة على مستويات متفاوتة من الدمار. ثم لاحظت عددا قليلا من البيوت المأهولة التي سُدَّت نوافذها المكسورة بقطع القماش البالية وساحات قمامة ينتشر بها المحار والسمك الميت. ورأيت مرة أو مرتين أناسا فاتري الهمم يعملون في حدائق قاحلة أو يحفرون الشاطئ الذي يفوح برائحة السمك أسفل منا بحثا عن الرخويات، ومجموعات أطفال لهم مظهر القردة يلعبون متسخين قرب عتبة البيت وقد نمت الحشائش حولها. وبشكل ما بدا هؤلاء الأشخاص أكثر إثارة

يدنو من البيوت الكئيبة، إذ كان بكل واحد منهم تقريبا أمر غريب يدنو بوجهه أو حركاته جعلني أنفر بشكل غريزي منهم دون قدرة مني على تحديد أو إدراك ما هو هذا الأمر تحديدا. وفكرت للحظة أن نموذج هذه البنية الجسدية قد ذكرني بصورة رأيتها من قبل، ربما في كتاب، في ظل ظروف تسمت برعب خاص أو شعور بالحزن، لكن هذا الخاطر الذي يشبه الذكرى سرعان ما تبدد.

وبوصول الباص إلى مستوى أدنى بدأت التقط نغمة ثابتة تصب الماء خلال هذا السكون غير الطبيعي. زادت كثافة المنازل المائلة المتروكة دون طلاء واصطفت على جانبي الطريق وزادت درجة ميلها عن تلك المنازل التي خلّفناها ورائنا. وتقلص المشهد البانورامي الفسيح أمامنا إلى شارع، واستطعت أن أرى في بعض المواقع آثار رصيف قديم ممهد بالحصى وطوار ممتد من الطوب. كل المنازل كانت مهجورة على ما يبدو، وتظهر في بعض الأحيان فجوات مكان مداخن المتداعية أو جدران قبو تدل على المباني التي انهارت. بينما تسود كل شيء أكثر روائح السمك، التي يمكن تخيلها،

إثارة للغثيان.

بعد ذلك بقليل بدأت تقاطعات الطرق ومفترقاتها في الظهور: تلك التي على اليسار تفضي إلى أنحاء شاطئ البحر غير الممهدة والمليئة بالقذارة والفساد، أما تلك التي على اليمين فتطلعك على مشاهد بذخ قديمة. لم أكن حتى الآن قد رأيت أحدا بالمدينة، لكن من الآن بدأت تظهر أدلة على وجود مساكنٍ مأهولة متفرقة- نوافذ تغطيها الستائر هنا وهناك، وسيارة متهالكة مركونة جنب الرصيف بين حين وآخر. ازادت الأرصفة وضوحا، ومع أن معظم البيوت قديم للغاية -فتراكيب الأخشاب والطوب تعود لأوائل القرن التاسع عشر- إلا أنها ظلت بشكل واضح ملائمة للسكنى. ولأني محب للآثار وهاوٍ، كنت قد فقدت الإحساس بالرائحة المقززة تقريبًا وكذلك شعوري بالخطر والنفور وسط هذا البذخ الذي بقي كما كان في الماضي دون أن يطاله أي تغيير.

ولم أكن لأصل إلى غايتي بدون انطباع شديد من تلك النوعية الكريهة التي توجع القلب. كان الباص قد انتهى

إلى مكان يشبه تجمعا مفتوحا أو نقطة مركزية تحتل الكنائس جانبيها وبمنتصفها بقايا منشور أخضر متسخ، عندما كنت أنظر إلى قاعة ترفعها الأعمدة يمين ملتقى الطرق الذي أمامي، أضحت البنايات التي كانت ذات يوم بيضاء الطلاء رمادية متساقطة الطلاء، وكانت اللافتة ذات الأسود والأخضر على الواجهة باهتة تماما، حتى أنني لم أستطع إلا بشق النفس أن أستبين أحرفها: "أخوية داغون السرية". هذه التي كانت فيما خلى قاعة ماسونية وصارت الآن تابعة لطائفة دينية لا وزن لها. وبينما كنت أجتهد في فك مغاليق هذه الكتابة، شتَّتَ انتباهي صوتٌ غليظ النغم عبر الشارع لناقوس مكسور، فأسرعت أتلفت لأنظر من نافذة الباص التي بجانبي.

كان الصوت آت من كنيسة قصيرة مبنية بوضوح من الحجارة في زمن أحدث من زمن بناء معظم المنازل، إذ كانت مشيدة بدون إتقان على النمط الغوطي ولها طابق أرضي مرتفع لا يتناسب مع النوافذ المغلقة. وعلى الرغم من اختفاء عقارب ساعتها من الناحية التي لمحتها منها، إلا أنني كنت

أعرف أن هذه الدقات ذات الصوت الأجش إنما تنبئ عن حلول الحادية عشرة. ثم انمحت فجأة كل الأفكار عن الزمن أمام صورة متدفقة ذات كثافة حادة ورعب لا يُفسَّر، تملَّكني قبل أن أعرف ما هي طبيعتها. كان باب قبو الكنيسة مفتوحا يكشف عن مستطيل من الظلام في الداخل. وبينما كنت أنظر، مر خيال محدد، أو بدا أنه يمر، خلال المستطيل المعتم، مشعلا في عقلي تصورا خاطفا لكابوس كان يمثل كل الإثارة الزائدة عن الحد لأن تحليلي لم يستطع أن يتبين صفة واحدة مريعة فيه.

كان ذلك خيال أول كائن حي أراه منذ دخلت الجزء المزدحم من المدينة - باستثناء السائق - وربما لو كنت في مزاج أصفى لما وجدت شيئًا من الرعب على الإطلاق فيه. أدركت بعد ذلك مباشرة أنه كان بالطبع قس ممن يرتدون الأردية الكهنوتية الغريبة التي أدخلتها بلا شك أخوية داغون منذ تعديلها طقوس الكنائس المحلية. لكن الشيء الذي انتبه له لاوعيي أول الأمر تقريبا وأضاف لمسة الرعب الغريب إليه كان هو التاج الذي يضعه؛ كان نسخة طبق الأصل

في الغالب مما أرتني الآنسة تيلتون إياه الليلة الماضية. أثار الوجهُ والهيئة الغامضين، للرجل المتثاقل في الرداء، صفات مشؤومة لا يمكن التعبير عنها في خيالي. هكذا قررت سريعًا أنه لم يكن هناك سبب يفسر لماذا كان عليّ الشعور بذلك المس المُخيف لشبه ذكرى مشؤومة. ألم يكن من الطبيعي أن تتخذ طائفة دينية سرية محلية من بين ملابسها نوعا مميزا من غطاء الرأس يصنعونه بشكل مألوف لمجتمعهم بطريقة غريبة ما- ربما باعتباره كنزا؟

بدأت أرى على جوانب الطريق الآن مجموعة ضئيلة للغاية من الشباب لهم مظهر كريه- كانوا فرادى، أو في مجموعات صامتة تتكون من اثنتين أو ثلاث. كانت الأدوار السفلية من المنازل المتهالكة تضم أحيانًا محلات صغيرة ذات لافتات قذرة. ولاحظت شاحنة أو اثنتين مركونتين بينما كان الباص يقرقع بنا في الطريق. صار صوت مصبات المياه أبعد فأبعد، وصرت أرى النهير ضيقا وبعيدًا تماما أمامي، يمتد خلال جسر الطريق السريع الواسع والمسوَّر بالحديد إلى ما وراء الميدان الذي يظهر على اتساعه. وبينما كان الباص يقعقع

بنا فوق الجسر ألقيت النظر على الجانبين ولاحظت بعض بنايات المصانع على حافة الجرف المعشب أو على مسافة كبيرة بالأسفل. كانت المياه غزيرة بعيدًا جدا بالأسفل، واستطعت أن أرى مجموعة مصبات قوية أعلى النهر على يميني وكان هناك مصب واحد على الأقل أسفل النهر على شمالي. وبداية من هذه اللحظة كانت الضوضاء بالفعل تصُم الأذن. ثم درنا بعد ذلك في ميدان كبير شبه دائري عبر النهر، وتوقفنا على الجانب الأيمن أمام مبنى طويل تُتوّجه قبة، ويطليه اللون الأصفر، وتعلوه لافتة شبه مطموسة تعلن أنه "جيلمان هاوس".

كنت سعيدا بالنزول من الباص، تقدمت في التو لإيداع حقيبتي بردهة الفندق الرث. لم أر هناك سوى رجل واحد -كهل لا تبدو عليه ما صرت أسميه "سيماء إنزماوث"- فقررت ألا أسأله أيا من الأسئلة التي تزعجني؛ فلم أنس أن هناك أشياء عجيبة قد لوحظت في هذا الفندق من قبل. وبدلا من ذلك رحت أتجول في الساحة، التي كان الباص قد رحل منها بالفعل، وأتفحص المشهد بدقة وتقييم.

كان الجانب الأول من المساحة الواسعة المرصوفة

بالحجارة يمثل الامتداد المستقيم للنهر بينما مثّل الجانب الآخر نصف دائرة تطوّق مبان من الطوب ذات سقوف مائلة تعود لحقبة ١٨٠٠ تقريبا، ومنه راحت الشوارع تتألق باتجاه الجنوب الشرقي والجنوب والجنوب الغربي. كانت المصابيح قليلة وصغيرة بشكل مقبض للصدر، وكلها خابية التوهج، وكنت سعيدا أنني سأبدأ خططي قبل حلول الظلام، وإن كنت أعلم أن القمر سيكون منيرا. كانت المباني في حال جيدة، وقد تحتوي على عشرات المحلات التي تعمل حاليا، أحدها كان محلًا من محلات بقالة "فيرست ناشونال"، وهناك مطاعم كئيبة ومتجر أدوية ومكتب بيع سمك بالجملة، وهناك مكان آخر، فعند أقصى شرق الميدان قرب النهر يوجد مكتب المدينة الوحيد للصناعة- شركة مارش للتكرير. يمكنك أن ترى الآن حوالي عشرة أشخاص وأربع سيارات أو خمس وشاحنات تقف متفرقة بالأنحاء. لم أكن بحاجة لأن يخبرني أحد أن هذا هو مركز مدينة إنزماوث. كنت ألتقط لمحات مشبعة بزرقة الميناء جهة الشرق، قبالة الأطلال التي تنهض لثلاثة أبراج كنسية جميلة على النمط

الجورجي. وعلى الضفة الأخرى من النهر، ماحية الشاطئ، رأيت البرج الذي يعلو ما خمنت أنه معمل مارش للتكرير.

لسبب أو لآخر اخترت أن أنجز متطلباتي أولًا من محل البقالة، الذي استبعدت أن يكون موظفوه مواطنين من إنزماوث. وجدت هناك فتى في حوالي السابعة عشرة من عمره يعمل بمفرده، كنت سعيدًا برؤية المرح والدماثة اللتين تبشران بمعلومات مفرحة. وبدا تائقًا بشكل استثنائي للكلام، أدركت منه بعد قليل أنه لا يحب المكان، ولا رائحته السمكية، ولا ناسه الماكرين. وكانت أي كلمة مع أي شخص غريب عن البلد تمثل له راحة نفسية. لقد نزل من أركم، منتقلا مع عائلته التي جاءت من إبسويتش، كما أنه لا يضيع وقتا للعودة إليهم في اللحظة التي يفرغ فيها من العمل. عائلته لا تحب له أن يعمل في إنزماوث، إلا أن إدارة سلسلة المحلات هي التي قامت بنقله إلى هنا وهو لا يريد ترك الوظيفة.

لم تكن هناك -كما كان يقول لي- مكتبة عامة ولا غرفة تجارية في إنزماوث، لكنني استطعت اكتشاف طريقي تقريبا

للمكان. فالطريق الذي جئت منه كان "فيدرال". كانت شوارع السكن القديم التي تنعم بحالة جيدة غربه -برود، وواشنطون، ولافايت، وأدامز- وكانت العشوائيات ناحية الشاطئ شرقه. ووسط هذه العشوائيات -بطول الشارع الرئيسي- وجدت الكنائس الجورجية القديمة، غير أنها كانت مهجورة منذ زمن طويل. ومن الأحسن ألا يكون المرء لافتا للانتباه بشكل كبير في مثل هذا الجوار -خاصة شمال النهر- فالناس متجهمون وعدائيون. بل إن بعض الغرباء تعرضوا هناك للاختفاء.

كانت بعض المواقع المحددة مناطق محظورة، كما قد تَعَلَّم لقاء كلفة باهظة. فيجب على المرء ألا يتسكع كثيرا حول معمل مارش للتكرير، أو حول أي من الكنائس التي لا تزال مطروقة، ولا حول قاعة أخوية داغون ذات العَمَد عند كنيسة "جرين" الجديدة. فقد كانت تلك الكنائس شديدة الغرابة- وكانت الطوائف الخاصة بهم في الخارج تتبرأ منها تماما، وكما يظهر فهي تستخدم أغرب أنواع الطقوس والأردية. كانت عقائدهم محرَّفة وغامضة، وبها تلميحات عن نوع معين من

التحولات العجيبة التي تقود إلى فواحش جسدية -شاذة- على هذه الأرض. وقد نهاه القسيس بشدة -دكتور والاس من كنيسة "أسبوري" التابعة للأسقفية الميثودية في أركم- أن يدخل أيًا من الكنائس في إنزماوث.

أما بالنسبة لأهل إنزماوث فلا يعرف الشاب كيف ينبغي أن يتعامل معهم إلا بالكاد، فهم ماكرون ونادرا ما يظهرون، كالحيوانات التي تعيش في الجحور، ويستطيع المرء بصعوبة أن يتخيل كيف يمضون وقتهم بعيدا عن صيدهم غير المنظم. ربما كانوا يستلقون أغلب ساعات النهار -بسبب كميات الخمور التي يستهلكونها سرا- في غيبوبة الكحول. إن وجوههم متجهمة ويجتمعون في نوع من الزمالة أو الفهم المتبادل على الدوام - يحتقرون العالم كما لو كان متاحا لهم الوصول إلى مراتب أخرى أفضل من الوجود. كان منظرهم مفزعا كفاية، وبالأخص هذه العيون الجاحظة التي لا ترمش ولم يرها المرء مغلقة قط- كما أن أصواتهم تثير الاشمئزاز. ومن المقرف أن تسمعهم يثرثرون في كنائسهم آناء الليل، خاصة في أعيادهم واجتماعاتهم الرئيسية، التي تقع مرتين في

العام، ٣٠ أبريل و٣١ أكتوبر.

وهم كذلك متيمون بالمياه والسباحة إلى حد بعيد سواء في الميناء أو في النهر. وسباقات السباحة حتى أعشاب الشيطان المرجانية شائعة جدا، وكل من تراه يبدو في صحة جيدة تناسب المشاركة في مثل هذه الرياضة الشاقة. لكن عندما يفكر المرء في الأمر، يجد أنه لا يرى في الأماكن العامة غير الشباب. أما كبار السن فكان يغلب على مظهرهم الفساد. وعندما تقع الاستثناءات، يكونون في الغالب أشخاصا لا أثر للشذوذ بهم، كالموظف الكهل في الفندق. ويتساءل المرء ماذا حدث لمعظم كبار السن، وإذا لم تكن "سيماء إنزماوث" ظاهرة مرضية غريبة خبيثة ازدادت قبضتها مع مرور السنين.

وحده مرض شديد الندرة قادر على إحداث تغيير جذري في بنية الفرد التشريحية بعد أن يكون نموه قد اكتمل -مثل التغيرات التي تتعلق بالعظام وتمس أشياء أساسية تماما كشكل الجمجمة- لكن حتى هذا الوجه من أوجه المرض لم يعد مربكا وغير مألوف مقارنة بخصائص المرض الظاهرة ككل. يبدو من العسير، كما أكّد الشاب، أن تصل في

هذا الأمر إلى نتيجة، إذ أنك لن تستطيع معرفة أي من سكان إنزماوث بشكل شخصي، مهما كان الوقت الذي قد تمضيه معهم طويلا.

كان الشاب على يقين أن كثيرًا من أسوأ نماذج هؤلاء الذين يظهرون في المدينة محبوسين في أماكن ما، يسمع الناس منهم أحيانًا أغرب أنواع الأصوات. ويشاع أن المباني المتداعية على الواجهة البحرية شمال النهر تتصل بأنفاق سرية، وأنها في الواقع عبارة عن ممرات مكتظة بالحالات الشاذة المخفية. بدا الجزم بشيء عن نوع الدماء الأجنبية -إذا كان ثمة دماء أجنبية- لدى هؤلاء مستحيلا. كما أنهم كانوا أحيانًا يحتفظون بشخصيات معينة منفرة بعيدا عن الأنظار، عندما تأتي الحكومة أو يأتي أي غريب آخر إلى المدينة.

محاولة سؤال أحد المواطنين عن أي شيء يخص المكان، كما قال لي الفتى، تذهب سدى، والوحيد الذي يمكن أن يجيب كان رجلا بلغ من العمر أرذله إلا أنه يتمتع بهيئة طبيعية ويعيش في دار للفقراء بالطرف الشمالي للمدينة ويقضي وقته في المشي بالأرجاء أو التسكع حول محطة الإطفاء. وكان هذا

الرجل الأشيب، زادوك آلين، يبلغ من العمر ٩٦ عاما كما أنه مخبول نوعا ما، بالإضافة إلى أنه سكّير البلدة. وهو شخص غريب ماكر، يتلفت دائما حوله كأنه يخشى شيئًا ما، وعندما يكون في وعيه لا يمكن إقناعه على الإطلاق بالحديث إلى الغرباء، لكنه رغم ذلك لم يكن يقدر أن يقاوم سُمّه المفضل، فإذا ثمل أمدّك هامسًا بأكثر المقاطع من ذكرياته إثارة للذهول.

وعلى العموم لا يزال بإمكانك رغم ذلك الحصول على القليل من المعلومات المفيدة منه، وإن كانت كل قصصه ضرب من الجنون، وتلميحاته مقتطعة من أعاجيب مستحيلة وأهوال لا أساس لها إلا خياله المختل. لم يصدقه أبدا أي شخص، لكن المواطنين لا يروق لهم أن يجرع الخمر ويتحدث إلى الغرباء، ولن يكون من الآمن على الإطلاق أن يراك أحد وأنت تستجوبه. ومن المحتمل أنه مصدر بعض الأوهام والأقاويل المتطرفة التي يتناجى بها الناس.

العديد من السكان الوافدين كانوا يُلمحون إلى وحوش ما من وقت لآخر، لكن لن يكون مدهشًا أن يقع مثل هذا التوهم نتيجة الخلط بين حكايات العجوز زادوك وبين هيئة

السكان الشائهة. كما أن الوافدين لا يبقى منهم أحد خارج منزله حتى وقت متأخر من الليل، فهناك انطباع سائد أن ذلك ضرب من الطيش، بالإضافة إلى أن الشوارع تكون معتمة بشكل كريه.

أما بالنسبة للتجارة، فوفرة السمك كانت بلا شك شيئًا خارقا، لكن المواطنين الأصليين لا يستفيدون منه إلا قليلًا، علاوة على انخفاض الأسعار ونمو المنافسة. ويعتبر التكرير تجارة المدينة الفعلية طبعًا، والذي يقع مكتبه التجاري بالميدان بعد عدد قليل من الأبواب المجاورة باتجاه الشرق. لم ير أحد العجوز مارش قط، لكنه كان يذهب أحيانًا للعمل في سيارة مغلقة ذات نوافذ مستورة.

دارت شائعات حول ما صار إليه شكل مارش بعدما كان ذات يوم رفيع الأناقة. يقول الناس أنه لا يزال يرتدي سترة فراك من ملابس العصر الإدواردي لتناسب تشوهات معينة لديه. أقام ابنه في وقت سابق مكتبا بالميدان، لكنهم اختفوا عن الأنظار بعد ذلك لفترة طويلة تاركين عبء تلك الشؤون على كاهل الجيل الأصغر، وقد أصبح مظهر

الأبناء وأخواتهم غريبا، خصوصًا الكبار من بينهم، وقيل أن حالتهم الصحية تعاني من تدهور مستمر.

إحدى بنات مارش كانت امرأة منفرة لها مظهر الزواحف وترتدي كمًا مبالغًا فيه بوضوح من حلي النمط التقليدي الغريب الذي ينتمي إليه التاج العجيب. لاحظ الفتى هذا الحلي عددًا من المرات، وسمع من يتكلم عنها باعتبارها جزءًا من كنز، إما لقرصان أو لشيطان. كان رجال الدين -أو الكهنة، أو أيا ما كانوا يسمونهم أيامها- يرتدون هذا النوع من الزينة كغطاء للرأس أيضا، غير أن أحدا لم يكن يستطيع، إلا نادرا، أن يختلس إليهم النظر. لم ير الشاب أشخاصا آخرين لكن يشاع وجود آخرين بأرجاء إنزماوث.

كان آل مارش وثلاث عائلات أخرى -آل وايت، وآل جيلمان، وآل إليوت- قد ترعرعوا جميعا في إنزماوث، منغلقين تماما على أنفسهم. يعيشون في منازل فارهة بطول شارع واشنطون، وكثيرا ما يشاع أنهم يخفون في الميناء بعض أقاربهم ممن يمنعهم مظهرهم الشخصي من الظهور العام، ممن تم رفع تقارير مقيدة بموتهم.

رسم لي الفتى بعد ذلك خريطة تقريبية لمعالم المدينة البارزة، بغرض تحذيري، لأن العديد من الشوارع قد أزيلت لافتاتها، وقد كانت خريطته شاملة ومتقنة. وبعد لحظة تأمل شعرت أنها بالتأكيد ستكون ذات نفع كبير، فوضعتها في جيبي وأنا أشكره جزيل الشكر. ولما كرهت كآبة المطعم الوحيد الذي رأيته، أحضرت حاجتي الكافية من بسكويت الجبن ورقائق الجنزبيل لتكون بمثابة الغداء لوقت لاحق. وقررت أن يبدأ برنامجي بتتبع مسار الشوارع الرئيسية، وأن أتحدث مع أي ساكن وافد إذا ما قابلت أيهم، وأن أدرك عربة الثامنة المتجهة إلى أركم. كان بإمكاني أن أرى المدينة نموذجا هاما وبالغا للفساد التام؛ لكن لأني لم أكن متخصصا في علوم الاجتماع، فقد اكتفيت فقط بحدود ملاحظاتي المهمة في مجال العمارة.

وهكذا بدأت جولتي بشكل منظم، وإن كنت شبه مرتبك، في شوارع إنزماوث الضيقة المظلمة، عابرا الجسر ومنعطفا باتجاه خرير المصبات أسفله، مررت قرب معمل مارش للتكرير، الذي بدا بشكل غريب خاليا من أي ضجة تصنيع. كان المبنى منتصبا على حافة النهر شديدة الانحدار

قرب الجسر وملتقى الطرق المكشوف الذي اعتبرته مركز المدينة الأول، والذي استبدلوه بعد الثورة بميدان المدينة الآن.

وعدت لأعبر النهير على جسر الطريق الرئيسي، فوصلت إلى منطقة مهجورة تماما جعلتني بصورة ما أرتعد. كانت مجموعة من الأسطح المائلة المتداعية ترسم أفقا خياليا مسننا للسماء، يرتفع فوقه برج الكنيسة القديمة مثل غول مقطوع الرأس. كانت بعض المنازل بطول الشارع الرئيسي مأهولة، لكن معظمها كان موصد النوافذ بالأخشاب. ورأيت أسفل الشوارع الجانبية غير المرصوفة نوافذ الأكواخ المهجورة السوداء فاغرة، وأكثرها يميل بزوايا خطرة لا تصدَّق بسبب غوص الأساسات في الأرض. كانت تلك النوافذ تحدق بشكل شبحي يسلب المرء شجاعته ويدفعه للفرار شرقا باتجاه البحر. لا شك أن رعب البيوت المهجورة يَعظُم في التكرار الهندسي أكثر من تعاظمه في التكرار الرقمي عندما تتعدد المنازل لتكوّن مدينة من الكآبة بكل معنى الكلمة. مرأى مثل هذا العدد اللا نهائي من طرقات الموت والفراغ السمكيّ الأعين، والتفكير في مثل هذا العدد اللانهائي

المتصل من الحجرات المظلمة التي تثير الهموم، والتي تحوّلت إلى شِباكِ عنكبوتٍ واهية وإلى مجموعةٍ من الذكريات التي غزاها الدود- إنما يولّد في النفس مخاوف ونفورا لا تملك لها أقوى الفلسفات تبديدًا.

كان شارع "فيش" مهجورا كالشارع الرئيسي، وإن كان يختلف عنه بالعديد من مستودعات الطوب والحجارة التي لا تزال في حالة ممتازة. وكان شارع "ووتر" نسخة منه باستثناء وجود فجوات عظيمة ناحية البحر حيث يوجد رصيف الميناء. ولم أكن أرى أي كائن عدا صيادي السمك المبعثرين على الصخور البعيدة التي تصد المياه، ولم أكن أسمع صوتا باستثناء صفعِ الأمواج وجهَ الميناء وخرير المصبات في مانوكسيت. كانت المدينة تضغط أكثر وأكثر على أعصابي، فنظرت خلفي نظرة خاطفة واتخذت طريقي عائدا إلى جسر شارع "ووتر" المترنح. وكان جسر شارع "فيش"، وفق المخطط، يقع وسط الأنقاض.

شمال النهر كانت هناك آثار حياة تافهة - منازل ناشطة في صيد السمك بشارع "ووتر"، مداخن ينبعث الدخان

منها وأسطح منازل هنا وهناك، أصوات عابرة من مصدر غير محدد، وأشخاص يجوبون الشوارع الكئيبة والأزقة غير الممهدة متثاقلين وبدون نظام- لكن تراءى لي أن هذا أشد وطأة من المنطقة الجنوبية المهجورة. وذلك لسبب واحد هو أن الناس كانوا أبشع وأبعد على السواء من أولئك الذين يعيشون قرب مركز المدينة؛ ما جعلني أتذكر مرارا وبشكل مشؤوم شيئًا خياليًا تمامًا لم أستطع معه مغادرة المكان. فكيف تكون السلالة الغريبة من أهالي إنزماوث ها هنا أكثر منها داخل البلاد -إلا إذا كانت بالطبع "سيماء إنزماوث" مرضا وليست مجموعة صفات لسلالة بعينها، وفي هذه الحالة قد يكون هذا المكان مخصصًا لحالات الميناء الأكثر تطورًا.

أحد التفاصيل التي أزعجتني كانت توزيع الأصوات الواهنة القليلة التي سمعتها، والتي يفترض أن تأتي كلها بشكل طبيعي من المنازل التي بدت بوضوح مأهولة، إلا أنها كانت تصدر غالبا في الواقع من داخل أكثر المباني المغلقة بالأخشاب إحكاما. كانت الضوضاء مبهمة خشنة سريعة ذات صرير، ما جعلني أفكر بقلق في الأنفاق المخبوءة التي

أخبرني بها فتى البقالة. وفجأة وجدت نفسي أتساءل ما الذي قد تبدو عليه أصوات العشرات من هؤلاء. فلم أكن سمعت كلاما حتى الآن في هذا الجانب، وكان يعتريني قلق لا يُفسر ألا أقدم على السماع.

لم أتوقف سوى لوهلة أتطلع إلى مبنيين جميلين غير أنهما مهدومين لكنيستين بالشارع الرئيسي وشارع "تشيرش"، وأسرعت بالخروج من هذه العشوائيات المنحطة أمام البحر. وكان هدفي المنطقي التالي هو كنيسة جرين الجديدة، لكن لسبب أو آخر لم أكن لأتحمل المرور ثانية بالكنيسة التي لمحت في قبوها تلك الهيئة التي أثارت بي خوفا يستعصي على الفهم لقسيس أو كاهن غريب متوَّح. إلى جانب أن الفتى البقال قد أخبرني أن الأهالي لا يستسيغون تطفل الغرباء على الكنائس أو قاعة أخوية داغون.

وبناء على ذلك تابعت سيري للشمال بطول الشارع الرئيسي حتى مارتين، ثم درت إلى داخل البلاد، عابرا شارع "فيدرال" في طمأنينة شمال كنيسة جرين، ودخلت الجوار الأرستقراطي الخرب شمال شوارع "برود" وواشنطون

ولافايت وآدمز. وعلى الرغم من حالة هذه الشوارع القديمة البالية سيئة المنظر، لم يكن جلال شجرة الدردار الظليلة قد ذوى تماما. تتبعت عيناي الدار خلف الدار، وكان معظمها متهالكا أو مسدود المنافذ بين حدائق مهملة، ما عدا دار أو اثنين في كل شارع بدت مأهولة. ففي شارع واشنطون كان هناك صف من أربعة أو خمسة مروج وحدائق مستصلحة ومرعية بشكل جيد. وكان أفخم هذه المباني على حد تقديري منزل العجوز مارش، صاحب معمل التكرير المنكوب، الذي تمتد من خلفه الرياض المُدَرَّجة بطول طريق شارع لافايت كله.

ولم يكن ثمة كائن حي بهذه الشوارع يمكن أن تصادفه، وأخذني العجب لاختفاء القطط والكلاب التام من إنزماوث. وكان الشيء الآخر الذي حيَّرني وأزعجني، حتى في بعض أفضل الدور منظرًا، أن العديد من نوافذ الشرفات والطوابق الثالثة كانت مغلقة بإحكام. بدت الحيطة والكتمان قانونا عاما بهذه المدينة الصامتة المليئة بالغرابة والموت، ولم أجد مفرًا من الشعور بأن شخصًا ما يراقبني بعينيه

الجاحظتين الماكرتين اللتين لم تُغلقا يوما قط.

استغرقتني رجفة وأنا أسمع دق الناقوس المكسور لبرج الكنيسة عن شمالي ثلاث دقات. وكان من الجيد أن تذكرت الكنيسة القصيرة التي أصدرت هذا الرنين، فتتبعت شارع واشنطون نحو النهر، حتى واجهت منطقة سبق أن كانت صناعية وتجارية، ورأيت أنقاض المصنع أمامي، وشاهدت أشياء أخرى مع آثار محطة القطار القديمة وجسر السكة الحديد خلفها أعلى النهير على يميني.

كان الجسر الغامض الآن أمامي تتصدره لافتة تحذير على عامود، لكنني قبلت المخاطرة واتخذت طريقي ثانية للضفة الجنوبية حيث عادت آثار الحياة للظهور مرة أخرى. أخذت الكائنات الماكرة المتثاقلة تحدق في اتجاهي بشكل مبهم، ورمقتني المزيد من الوجوه العادية بفتور وفضول. أصبحت إنزماوث لا تطاق بشكل يزداد وطأة في وقت قصير، فاتخذت الطريق لأسفل شارع "باين" باتجاه الميدان عساني أجد مركبة تقلني إلى أركم بدلا من انتظار باص الشؤم لفترة طويلة تبدأ من الآن.

لكني رأيت بعد ذلك محطة الإطفاء المتداعية عن يساري، ولاحظت هناك وجه العجوز الأحمر ذي اللحية الكثة والعينين المائيتين، يرتدي هلاهيل لا توصف ويجلس على مقعد خشبي يتحدث إلى اثنين من رجال الإطفاء ذوي الثياب الرثة كذلك، ولم يكن بهيئتهم شيء غير طبيعي. كان هذا الرجل بلا شك زادوك آلين، الأخرق السكّير التسعيني العمر، الذي كانت حكاياته عن إنزماوث القديمة وظلالها غاية في البشاعة بشكل لا يصدق.

(٣)

لابد أن شيطانًا غويًا -أو قوة ساخرة ما من مصدر معتم وخفيّ- هو ما جعلني أغيّر خطتي، فبعدما فكرت طويلا حتى انتهيت إلى حصر ملاحظاتي في ما يتعلق بالعمارة فقط، وأسرعتُ إلى الميدان محاولا الخروج في أسرع وقت من مدينة الموت والدمار المتعفنة هذه، إذا بي أرى العجوز زادوك آلين فتتولد في رأسي للتو أمورٌ تجعلني أُبطئ الخطو في تردد.

لم يكن العجوز يستطيع، فيما أكّد لي الفتى، إلا أن يُلمح بالأساطير الوحشية المفككة التي لا تصدق، كما أنه حذرني من خطر أن يراني أحدٌ أتحدث إليه، لكن التفكير في هذا العجوز الذي شهد خراب المدينة، وفي ذكرياته

التي ترجع إلى أيام المصانع والسفن الباكرة، كان إغراء لا نجدي في مقاومته أية مبررات عقلية مهما كان عددها. كما أن أغرب الأساطير وأكثرها جنونا ليست في الغالب إلا رموزًا واستعارات مبنية على الحقيقة- ولابد أن العجوز زادوك قد رأى كل ما جرى في إنزماوث خلال التسعين سنة الأخيرة. كان توهُّج الفضول يرتفع بي بعيدا عن الانتباه والحذر، وتخيلت في اندفاعي الشبابي أني قد أتمكن من التوصل إلى التاريخ الحقيقي للأحاديث الكثيرة المضطربة والمغالية التي سأستخرجها منه ببعض الويسكي الخام.

كنت أعلم أني لن أتمكن من مفاتحته الكلام حيثما يجلس الآن لأن رجال الإطفاء بالتأكيد سيروونني وينهروونني. بدلا من ذلك فكرت أن أستعد بشراء بعض الخمور المهربة من المكان الذي دلني عليه فتى البقالة، ثم أعود متسكعا بالقرب من محطة الإطفاء في عفوية تامة لأصادف العجوز زادوك وقد بدأ إحدى جولاته المعتادة، فهو كما أخبرني الفتى سريع الضجر ولا يجلس بجوار المحطة لأكثر من ساعة أو اثنتين في كل مرة إلا نادرا.

حصلت بسهولة على ربع زجاجة من الويسكي -وإن لم يكن بسعر زهيد- من خلف متجر قذر متعدد الأغراض خارج الميدان مباشرة على شارع "إليوت". كانت سيماء الرجل الذي لبى طلبي تتفق مع "سيماء إنزماوث" الجاحظة، إلا أن معاملته كانت متمدنة، ربما لتعامله الدائم مع زبائن غرباء مرحين -كسائقي الشاحنات، ومشتري الذهب، وأمثالهم- ممن يتواجدون بشكل عابر في المدينة.

عدت مرة أخرى إلى الميدان لأرى كيف يحالفني الحظ، فلم أبصر هنالك سوى الهامة الطويلة المائلة للعجوز زادوك آلين في ثيابه الرثة خارجا من شارع "باين" ليتجول حول "جيلمان هاوس"، فقمت، وفق خطتي، بلفت انتباهه وأنا ألوح بالزجاجة التي اشتريتها مؤخرا، وأدركت سريعا أنه بدأ يدور ورائي في شوق لنيل نصيب منها فدرت نحو شارع "وايت" متخذا الطريق لأبعد منطقة يمكنني التفكير فيها.

كنت أحدد خط سيري على الخريطة التي أعدها لي فتى البقالة قاصدا الامتداد المهمل تماما جنوب واجهة البحر التي سبق أن زرتها ولم أصادف بها سوى الصيادين الجالسين على

الصخور البعيدة التي تصد المياه، بعدها أتجاوز القليل من الساحات الجنوبية هناك وأجد مقعدين على رصيف الميناء المهجور وأتمكن من سؤال العجوز زادوك بحرية دون أن يراقبنا أحد لوقت غير محدود. وقبل أن أصل إلى الشارع الرئيسي التقط سمعي النداء الخافت الذي يشبه الصفير خلفي "يا، أستاذ!" فتركت العجوز يلحق بي ويجرع ملء فمه من زجاجة الويسكي.

بدأت أجس نبضه ونحن نسير بين الأنقاض المهجورة والمائلة بجنون من حولنا، لكنني وجدت لسانه العجوز لا ينفك بالسرعة المتوقعة، فأطلت النظر إلى المنفذ المفتوح باتجاه البحر بين جدران طوب منهارة ترعرع بينها العنب، ومن ورائه يبرز المرفأ الممتد بشكله القبيح، كتلة من تراب وإسمنت. كانت أكوام الحجارة المكسوة بالطحالب قرب الماء تعتبر أماكن لا بأس بها للجلوس، إذ كان حطام إحدى المستودعات جهة الشمال يعزل المشهد عن أي رؤية ممكنة. فكرت أن هذا المكان تحديدا هو المكان المثالي لحديث سري طويل، لذا اقتدت صاحبي أسفل الممر وانتقيت موضعين بين

الصخور المغطاة بالطحالب للجلوس. كان الهواء المحمل بالموت والعزلة شنيعا ورائحة السمك تكاد لا تطاق، لكني عزمت ألا يعوقني عما أريد شيء.

تبقت حوالي أربع ساعات يمكننا أن نتحدث خلالها فأتمكن من إدراك حافلة الساعة الثامنة إلى أركم لذا بدأت أمد السكّير العجوز بالمزيد من الشراب وأنا أتناول وجبتي الخفيفة، حريصا ألا أتخطى الحد في سقياه إذ لم أكن أريد أن تتحول ثرثرة زادوك الثمل إلى غيبوبة. وبعد ساعة بدأ صمته الماكر يتلاشى ببطء، لكنه ظل يتجنب أسئلتي عن إنزماوث وماضيها المسكون بالظلال بشكل محبط. وتابع يثرثر عن مواضيع تتعلق بهذه الأيام، مبديا معرفة واسعة بالصحف وميلا طاغيا للتفلسف على النمط القروي الواعظ.

وقرب انتهاء الساعة الثانية خشيت أن لا يكون ربع جالون من الويسكي كافيا للحصول على نتائج، فتساءلت إذا كان جديرا بي أن أتركه وأذهب للحصول على المزيد. لكن شاءت المصادفة، بعد ذلك مباشرة، أن تحقق ما فشلت كل أسئلتي حتى الآن في تحقيقه. التفت العجوز الهائم وأنفاسه

نحو صغير خفقة فانحنيت للأمام حتى أنصت إليه بانتباه.

كان ظهري يتجه نحو البحر الذي يفوح برائحة السمك، أما هو فكان يواجهه وقد التمعت حدقتاه الزائغتان لسبب أو لآخر بالضوء الواقع على خط شعاب الشيطان المرجانية البعيدة المنخفضة بادية في وضوح وسحر بعد ذلك على الأمواج.

كان المشهد، في ما يبدو، يثير انزعاجه، فبدأ يصب سلسلة من اللعنات الواهنة انتهت بهمسة سرية ونظرة شزر ألمعية، ثم مال نحوي ولمست بطيئة معطفي هامسًا ببعض التلميحات التي لا يمكن أن تخطئها الأذن:

"هنالك بدأ كل شيء- عند ذلك المكان الملعون الذي يحوي كل شر حيث تبدأ المياه العميقة. بوابة الجحيم- سقوط عميق نحو قاع سحيق- وكله من فعل القبطان أوبيد- هو الذي وجد ضالته في جزر بولينيزيا.

"كان الجميع في حالة سيئة تلك الأيام. كانت التجارة تخسر، والمصانع تتعطل -حتى الجديدة منها- وخيرتنا نحن معشر الرجال في سفن القراصنة في حرب عام ١٨١٢ قد قتلوا أو فقدوا مع السفينة الشراعية إليزى ومع القارب

المسطح رانجر- اللتان كان جيلمان يسافر على متنيهما. كانت لأوبيد مارش ثلاث سفن طافية- السفينة الشراعية كولومبى والسفينة هيفتى والسفينة سوماترى كوين ذات الطراز الباروكى. كان الشخص الوحيد الذى أبقى على تجارته فى شرق إنجي والمحيط الهادي، وعلى الرغم من ذلك كانت سفينة إسدراس مارتن الشراعية "مالاى برايد" قد قامت برحلة فى وقت متأخر من السنة الثامنة والعشرين.

"لم يكن هناك أحد مثل القبطان أوبيد- شيطان ابن جنية! ها، ها! أتذكر أنه كان يتحدث عن مناطق أجنبية، ويرمي كل الناس هنا بالغباء لأنهم يذهبون إلى الاجتماعات الكنسية حاملين همومهم فى استضغاف ومذلة. قائلا أن من الحري بهم اتخاذ الآلهة التي يعبدها بعض الناس فى جزيرة إنجي- آلهة يمنحون الناس أسماكا وفيرة مقابل القرابين التي ينالونها منهم، ويستجيبون بالفعل إلى صلوات الناس.

"كذلك تكلم كثيرًا مات إليوت، أعز أصدقائه، إلا أنه كان يرفض أن يقوم الناس بأي أمور وثنية. هو الذي أخبرنا عن جزيرة شرق أوثاهيت حيث كان هناك عدد كبير من

الأنقاض الحجرية أقدم عهدًا من أي شيء يعرفه إنسان، وعن أشياء مماثلة كانت على جزيرة بوناب، فى كارولينز، لكنها تحمل نقوشا تشبه تلك التماثيل الكبيرة على جزيرة القيامة. وكانت هناك جزيرة بركانية صغيرة بالقرب من هناك أيضا، عليها أنقاض أخرى تحمل نقوشا مختلفة- أنقاض بالية كما لو أنها كانت بأعماق البحر ذات يوم، تغطيها صور وحوش بشعة.

"حسنا، يا سيدي، كان مات يقول أن مواطني تلك الأنحاء كان لديهم من السمك قدر ما يسعهم صيده، كما أنهم كانوا يرتدون أساور للمعصم والذراعين وأردية للرأس مصنوعة من نوع غريب من الذهب ومنقوشة بصور لوحوش مثل تلك التى كانت منقوشة على الأنقاض الموجودة على الجزر الصغيرة- نوع من صور الضفادع التى تشبه السمك أو السمك إلى يشبه الضفادع مرسومة في كل الأوضاع كما لو كانت بشرا. لم يتمكن أحد من كشف أمرهم، وكانوا يتمتعون بكل شيء بينما يعجب مواطنو الجزر الأخرى من أين يحصلون على كل هذا السمك الوفير بينما لا تجد أدنى الجزر سوى أقل القليل منه. كان مات والقبطان

أوبيد فى غاية الدهشة. ولاحظ أوبيد إلى جانب ذلك، أن أعداد الشباب اللطيف هناك كانت تتناقص عاما بعد عام بينما يملأ الكبار الأرجاء. ولاحظ كذلك أن هيئة القوم كانت غريبة بشكل صارخ حتى بالنسبة لبلاد كاناكيس.

"تطلّب الأمر من أوبيد أن يؤدي أمورا وثنية حتى يستخرج الحقيقة منهم. لا علم لي كيف قام بذلك، لكنه بدأ بتجارة المواد التي تشبه الذهب التى كانوا يرتدونها. سألهم من أين تأتي، وما إذا كان باستطاعته أن يجلب المزيد منها، ثم استطاع في النهاية أن ينال القصة من فم رئيسهم العجوز- والاكيا كما يسمونه. لم يصدق أحد سوى أوبيد ذلك الشيطان العجوز ذي الصوت النديّ، إلا أن الكابتن كان يستطيع قراءة الناس كما لو كانوا كتبا. ها، ها! لا يصدقنى أحد الآن عندما أحكي هذه الأمور، ولا أظن أن أحدا سيفعل يا صاحبى الصغير- ورغم ذلك، دعنا نلقي نظرة عليك، فإن لديك تلك العينين النافذتين كتلك التي كانت لدى أوبيد".

أخذ همس الرجل العجوز يخفت أكثر، ووجدت نفسى

رتجف من نغمة صوته الفظيعة الصادقة والمنذرة بالسوء، مع
ني كنت أعرف أن قصته قد لا تكون سوى خيال رجل مخمور.

"حسنا، يا سيدي، كان أوبيد يقول أن هنالك أشياء على
هذه الأرض لم يسمع بها معظم الناس أبدا- ولن يصدقوها
إذ سمعوا بها. ففيما يبدو كان قوم كاناكيس يقدّمون الكثير
من شبابهم وفتياتهم أضحيات لنوع من الكائنات الإلهية
التي تعيش تحت البحر، ويحصلون في المقابل على كل أنواع
المحاباة. لقد قابلوا تلك الكائنات على الجزيرة الصغيرة ذات
الأنقاض الغريبة، التي كانت الصور البشعة على صخورها
الموحوش التي تشبه هجين السمك والضفادع تُمثِّل كما
يُفترض تلك الكائنات. ربما كانوا نوعا من المخلوقات التي
نشأت بسببها قصص حوريات البحر وما شابه ذلك.

"كانت لديهم كل أنواع المدن في قاع البحر، وكانت هذه
الجزيرة إحدى تلك المدن وقد ارتفعت إلى السطح من بينها.
لقد كان هذا النوع من الكائنات على ما يبدو يعيش في تلك
المباني الحجرية عندما ارتفعت الجزيرة فجأة إلى السطح،
وهكذا حصل أهل كاناكيس على ما كان هناك بالأسفل.

تحدثوا معهم بالإشارة بعدما تجاوزوا ذعرهم، ووضعوا فيما بينهم اتفاقًا منذ أمد طويل.

"كانت تلك الكائنات تحب القرابين البشرية. وكانوا يحصلون عليها لمدة طويلة قبل ذلك، لكنهم كانوا قد فقدوا الطريق إلى العالم بعد فترة من الزمن. أما ما كانوا يفعلونه بالضحايا فليس لي أن أخوض فيه، وأظن أن ذكاء أوبيد الحاد لم يفوّت السؤال عن ذلك. لكن الأمر ظل على ما يرام بالنسبة للوثنيين، لأنهم كانوا يمرون بفترات عصيبة استبد بهم فيها اليأس من كل شيء، فكانوا يقدمون للكائنات البحرية عددا محددا من شبابهم مرتين كل عام -عشية مايو وفي عيد القديسين- بشكل منتظم ما أمكنهم. كما كانوا يقدمون لهم بعض التحف المنحوتة التى يصنعونها. وهو ما وافقت الكائنات أن تمنحهم مقابله وفرة من الأسماك -التي كانوا يسوقونها إليهم من كافة أنحاء البحر- بالإضافة إلى القليل من المواد التى تشبه الذهب بين الحين والآخر.

"حسنا، فكما كنت أقول، التقى المواطنون بالكائنات على الجزيرة البركانية الصغيرة- كانوا يذهبون إليها فى زوارق

صغيرة محملة بالقرابين، ليعودوا بالمجوهرات الذهبية الشكل التى مُنِحَت إليهم. فى البداية لم تكن الكائنات تذهب إلى الجزيرة الرئيسية أبدا، لكنها بعد فترة أرادت زيارتها. ويبدو أنها كانت تتوق لذلك بعدما اختلطت بالناس، وشاركتهم الاحتفالات الدينية فى الأيام الكبرى- عشية مايو وعيد القديسين. وكما ترى، فقد كانوا قادرين على الحياة داخل وخارج المياه- ما يسمى البرمائيات، على ما أظن. أخبرهم أهل كاناكيس كيف أن الناس من الجزر الأخرى قد يسعون لإبادتهم إذا علموا بوجودهم هناك، فردوا عليهم أنهم لا يكترثون، وأن باستطاعتهم أن يستأصلوا البشر عن بكرة أبيهم إذا أرادوا الأذى- أعني أن أحدًا لم يكن يريد ذلك، وأن وسيلتهم لذلك كانت علامات محددة سبق أن استخدمها «القدماء» المفقودون، أيا من كان هؤلاء القدماء. لكن لأن هذه الكائنات لم تكن ترغب في الأذى، فقد وعدتهم بالبقاء في الأعماق عندما يزور الجزيرة أي شخص.

"كان أهل كاناكيس كلما اضطروا للقاء تلك الكائنات السمكية التي تشبه الضفادع أحجموا، لكنهم تعلموا في

النهاية النظر للأمر بطريقة أخرى أو شيء كهذا. إذ يبدو أن بني البشر ينتمون إلى مثل هذه الوحوش المائية، وأن كل كائن حي قد خرج من الماء ذات يوم ولا يحتاج إلا إلى تغيير طفيف للعودة مرة أخرى إليه. وهكذا أخبرت الكائنات البحرية أهل كاناكيس أنهم لو خلطوا دماءهم فسيضعون أطفالا يشبهون البشر فى البداية، لكنهم سيتحولون شيئًا فشيئًا مثل الكائنات البحرية، حتى يُساقون إلى الماء فى النهاية وينضمون إلى باقي الكائنات هناك بالأعماق. وهذا هو الجزء المهم يا صديقي الصغير- فعندما يتحولون إلى كائنات سمكية ويذهبون إلى الماء لا يموتون بعد ذلك أبدًا. إن تلك الكائنات لا يصيبها الموت مطلقًا ما لم يُقتلوا شر قتلة.

"حسنا يا سيدي، اتضح مع الوقت أن أوبيد كان يعرف أن أهل الجزيرة تمتلئ عروقهم بدم الأسماك من كائنات الأعماق المائية تلك. كانوا يتقدمون فى السن فتبدأ علامات ذلك فى الظهور عليهم وعندها كانوا يختفون عن الأنظار حتى يشعروا كأنهم يساقون إلى الماء فيرحلوا. البعض منهم كان يؤخذ قبل الآخرين، والبعض الآخر لم يكن

يتغير بشكل كاف تمامًا حتى يساق إلى المياه، لكن معظمهم كانوا يتحولون كما أخبرت المخلوقات البحرية تماما. وكان من يولد منها أقرب إلى الكائنات يتغير أبكر من سواه، أما من كانوا يولدون أقرب إلى البشر فكانوا يبقون أحيانًا على الجزيرة حتى يتجاوزوا السبعين، وعلى الرغم من ذلك فإنهم كانوا عادة ما يذهبون للأعماق فى زيارات تجريبية. وكانوا يعودون للزيارة عمومًا أكثر من مرة بعدما يساقون إلى الماء، لذا قد تجد شخصًا يتحدث إلى جده الخامس الذى غادر الأرض قبل قرنين من الزمان أو قبل ذلك.

"تخلص الجميع من فكرة الموت - إلا فى حروب الزوارق مع أهل الجزر الأخرى، أو عند تقديمهم كقرابين إلى آلهة البحر بالأعماق، أو بسبب عضة ثعبان أو حشرة أو طاعون أو أمراض خبيثة حادة أو شيء يصيبهم قبل أن يساقوا للماء- لكنهم ببساطة كانوا يتطلعون إلى نوع من التحول لا يصبح رهيبًا للغاية إلا في النهاية. إذ كانوا يظنون أن ما يحدث لهم إنما يستحق العناء وما عليهم سوى الخضوع له- وأحسب أن أوبيد قد توصل نوعا ما إلى التفكير فى الأمر

نفسه عندما فكر في قصة والاكيا العجوز قليلا. على الرغم من أن والاكيا كان أحد القليلين الذين لا تسري بعروقهم أية دماء سمكية- لكونه من أسرة ملكية تزاوجت مع سلالات سمكية من جزر الأخرى.

"كان والاكيا قد أطلع أوبيد على العديد من الطقوس والتعويذات التي يجب القيام بها مع الكائنات البحرية، وتركه يشاهد بعض الناس في القرية وهم يتحولون عن الشكل البشري بشكل كبير. لكنه لم يتركه أبدا، بشكل أو بآخر على الرغم من ذلك، يشاهد أحد الكائنات العادية وهي تخرج من الماء. وفي النهاية أعطاه نوعا طريفا لشيء يصعب تصنيفه مصنوع من الرصاص أو شيء آخر، وقال له أن بإمكانه استدعاء الكائنات السمكة من أي مكان في الماء قد يكون لهم وكر فيه. لم يكن عليه سوى إلقاءه بالأسفل مع تلاوة نوع محدد من الصلوات وما إلى ذلك. ثم أعلمه والاكيا أن هذه الأشياء منتشرة بكل أنحاء العالم وأن أي شخص يبحث عنها يمكنه العثور على أوكارها ويستدعيها للصعود إذا رغب في ذلك.

"لم يكن مات يستسيغ هذه التجارة على الإطلاق، بل رأى أن على أوبيد البقاء بعيدًا عن تلك الجزيرة، لكن القبطان كان صارما فيما يتعلق بالربح لأنه وجد أن باستطاعته جلب المواد التى تشبه الذهب بسعر زهيد وتحويلها إلى صناعة خاصة بهم. وجرت الأمور على هذا المنوال لسنين، وحصل أوبيد على ما يكفى من تلك المواد التى تشبه الذهب ليبدأ معمل التكرير فى طاحون »وايت« المتهالك. إذ لم يكن يجرؤ على بيع القطع كما كانت، وإلا فلم يكن الناس ليكفوا عن طرح الأسئلة. رغم ذلك كان طاقمه يختلس القطع ويبيعها بين الحين والآخر، رغم قسمهم على إبقاء الأمر سرا، كما أنه ترك نساء عائلته يرتدين بعض هذه القطع التى كان لها مظهر آدمي أكثر من غيرها.

"حسنا، لقد اكتشف أوبيد ببلوغه الثامنة والثلاثين - عندما كنت أنا قد بلغت السابعة فقط من عمري- أن أهل الجزيرة قد أُبيدو تماما فيما بين رحلاته. إذ يبدو أن أهل الجزر الأخرى قد علموا بما كان من أمر الجزيرة وتولوا إنهاء أمرهم بأيديهم. وأغلب الظن أن الإشارات السحرية القديمة قد

أصابتهم، تلك الإشارات التى قالت المخلوقات البحرية أنها الشيء الوحيد الذى تخشاه. ولا أستطيع التأكيد إذا ما كان أى من أهل كاناكيس وجد فرصة للفرار عندما رمى قاع البحر أنحاء الجزيرة بأنقاض أقدم من طوفان نوح. كانت تلك لعنات دينية- لم تترك شيئًا قائما لا على الجزيرة الرئيسية ولا على جزيرة البركان الصغيرة ما عدا أجزاء من الأنقاض التى كانت أكبر من أن تدك. وكانت هناك حجارة صغيرة فى بعض الأماكن منثورة -كالتعاويذ- بالأرجاء ومنقوشة بشيء أشبه بما نسميه اليوم الصليب المعقوف. ربما كانت تلك إشارات «الأسلاف». أبيد الناس تمامًا بدون أثر لأى من الأشياء التى كانت تشبه الذهب ولم ينبس أي من القريبين من كاناكيس بكلمة عن الأمر. بل لم يقروا حتى بوجود أي أشخاص من قبل على تلك الجزيرة أبدا.

"صدم هذا الأمر أوبيد بعنف، فقد كان يرى تجارته العادية لا تجنى له شيئًا مذكورا. وكانت صدمة لإنزماوث بأكملها، لأن ما يجنيه سيد السفينة بشكل عام في أيام الإبحار، يعود على طاقمها بشكل مناسب. لعب معظم الناس في تلك

فترة العصيبة دور فئران السفينة واستقالوا، لكنهم كانوا فى موقف عصيب لأن الأسماك كانت تختفي ولم تكن المصانع تعمل بشكل جيد.

"ذلك هو الوقت الذى بدأ فيه أوبيد صب لعناته على الناس لأنهم خراف بليدة يهتفون بالصلاة إلى مملكة السماء المسيحية ولا يساعدونه بشيء. أخبرهم أنه كان يعرف أناسا يصلون لآلهة تمنحهم شيئًا يحتاجون إليه بحق في مقابل طاعتهم، وقال أنه لو وقف إلى جانبه مجموعة رجال فربما يستطيع وضع يده على مصادر قوة بعينها ستجلب عليهم وفرة من السمك والقليل الكافي من الذهب. أما الذين عملوا على سفينته سومترى كوين وشاهدوا الجزيرة فقد علموا بالتأكيد ما الذى كان يعنيه، وكانوا في غاية القلق بشأن الاقتراب من كائنات بحرية كالتي سمعوا بها، أما الذين لم يكونوا يعلمون عما كان يتحدث، فقد أغراهم ما كان يقوله أوبيد، وبدأو يسألون ماذا بوسعه أن يفعل ليضعهم على طريق الإيمان الذى يستطيعون التماس ثماره."

ترنح العجوز وغمغم وهوى إلى صمت كئيب وقلق.

نظر إليّ شذرا بعصبية ثم التفت مرة أخرى وحدق بشكل مفتون فى الشعب المرجانية السوداء البعيدة. لم يجبني عندما تحدثت إليه، علمت أننى ينبغى أن أتركه لينتهي من الزجاجة. أثارتني بعمق هذه الحكاية الجنونية التى كنت أستمع إليها، وتخيلت أنها تشتمل على نوع من الاستعارة الفظة المبنية على غرابة إنزماوث والذى وضع هو تفاصيلها بخيال خلاق مع أجزاء متفرقة من أساطير شديدة الغرابة. لم أصدق للحظة أن تلك القصة لها أى أساس من الواقع، لكن على الرغم من ذلك فقد كانت الحكاية تنطوي على رعب حقيقي ربما سببه فقط استدعاء الإشارة إلى المجوهرات الغريبة التى ترتبط بوضوح بالتاج المشئوم الذى رأيته فى نيوبيربورت. ربما جاءت الحلي من بعض الجزر الغريبة، ومن الممكن أن تكون القصص الوحشية مجرد أكاذيب لأوبيد الغابر نفسه لا من هذا السكير الهرم.

ناولت زادوك الزجاجة فأفرغها بجوفه حتى آخر قطرة. كانت لديه قدرة غريبة على تحمل هذه الكمية الكبيرة من الويسكى دون أن يظهر على صوته المرتفع الحاد أي أثر

للغلظة. لعق بلسانه فم الزجاجة ووضعها فى جيبه، ثم بدأ يؤمئ ويهمس برفق إلى نفسه. ملت إليه بشدة لألتقط أية كلمات واضحة قد يتلفظ بها، وظننت أنى رأيت إبتسامة ساخرة مستقرة خلف شواربه الكثة المتسخة. نعم- لقد كان فعلا يلقي كلمات، وتمكنت أن أستوعب ما يكفي منها.

"يا للفقير (مات) -الذي ظل ضد الأمر على طول الخط- حاول أن يجعل القوم يصطفون حوله وكان له حديث طويل مع الواعظين -سدى- فقد طاردوا كاهن المجمع البروتستانتى خارج المدينة، كما غادر الرجل الميثودى -ولم نر ريسولفيد بابكوك كاهن البابا مرة أخرى- إنه غضب الرب- لقد كنت مخلوقا صغيرا رائعا، لكننى سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت- داغون وعشتروت- بعل وبعلزبوب- غولدن كاف وأوثان كنعان والفلسطينيين- أرجاس البابليين، ميني، ميني، تيكيل، أوفارسين"-

توقف مجددا، وخفت من النظرة التي في عينيه المائيتين الزرقاوين أن يكون على وشك فقدان الوعي أخيرا. لكني عندما خبطته برفق على كتفه تلفّت نحوي بدهشة وانتباه

واطلق بعض العبارات الأشد غموضا

"الا تصدقني، هه! هه، هاه، هاه. إذن أخبرني يا صاحبي الصغير، لماذا اعتاد القبطان أوبيد هو وعشرون رجلا غريبا آخر أن يذهبوا إلى شعاب الشيطان المرجانية فى جوف الليل ويقوموا بالترتيل بصوت عال يمكنك سماعه من كافة أنحاء المدينة عندما تكون الريح مواتية؟ أخبرنى عن هذا، هه؟ وأخبرنى لماذا كان أوبيد يقوم دائما بإلقاء الأشياء الثقيلة إلى أسفل المياه العميقة للجانب الأخر من الشعاب حيث يمتد القاع كالجرف نحو أعماق أبعد مما يمكن أن تتصور؟ وأخبرنى ماذا فعل بالأشياء الرصاصية ذات الأشكال الطريفة التي لا اسم لها والتى منحه إياها والاكيا؟ هه، يا فتى؟ وما الذى كانوا يعوون جميعهم به عشية مايو وعيد القديسين من بعدها؟ ولماذا يرتدي كهان الكنيسة الجدد -الرجال الذي اعتاد أن يبحر معهم- تلك الأردية والأغطية الغريبة ويغرقون أنفسهم في المواد التى تشبه الذهب والتى أحضرها أوبيد؟ هه؟"

كانت العينين المائيتين الزرقاوتين وحشيتان تقريبا

ومهوستان الآن وقد انتفشت لحيته البيضاء كما لو كانت مسته كهرباء. ورآنى زادوك العجوز في الغالب وأنا أنكمش متراجعا فراح يقهقه بشكل شرير.

"ها، ها، ها، ها! بدأتَ ترى هه؟ ربما تود لو كنت مكانى فى تلك الأيام، عندما كنت أرى من القبه التى فوق منزل الكائنات وهي تخرج إلى البحر. أوه، باستطاعتي أن أؤكد لك أن آذان الوعاظ القصار القامة كانت كبيرة، لم أكن أفوت أى شيء مما كان يقال حول خروج القبطان أوبيد وأتباعه إلى الشعاب المرجانية! ها، ها، ها! ماذا تقول عن الليلة التى أخذت فيها نظارات السفن المعظمة أعلى القبة لأرى الشعاب المرجانية تعج بالأشكال التى تنطلق سريعا بمجرد ارتفاع القمر؟

"كان أوبيد وأتباعه يركبون زورقا، لكن الأشكال كانت تنطلق إلى أبعد جانب نحو المياه العميقة ولا تعود إلى الظهور أبدا...

"ما رأيك بأن تكون صبيا صغيرا وحيدا على تلك القبة تشاهد تلك الأشكال التى لم تكن آدمية؟... ها؟... ها، ها، ها، "...

كان العجوز يصبح أكثر هيستيرية، بينما أخذت أرتعد من خطر مجهول. وضع أصابعه الغليظة على منكبى، وبدا لى أن اهتزازها لم يكن بفعل المرح على الإطلاق.

"افترض أنك رأيت ذات ليلة شيئًا ثقيلا يُلقى أمام زورق أوبيد خلف الشعاب المرجانية ثم علمت فى اليوم التالي أن شابا قد فقد من منزله. ها! هل رأى أحد بعد ذلك أبدا أي أثر لهيرام جلمان. حصل؟ ونك بيرس، ولولي وايت، وآدونيرام ساوثويك، وهنرى جاريسون ها؟ ها، ها، ها، ها... كانت تلك الأشكال تتكلم بواسطة الإشارة بالأيدي... كانت لهم أيد حقيقة...

"حسنا يا سيدي، كان هذا هو الوقت الذى عاد فيه أوبيد قويا مرة ثانية. رأى الناس بناته الثلاث يرتدين المواد التى تشبه الذهب كما لم ير أحد من قبل عليهن شيئًا كهذا، وبدأ الدخان يتصاعد من مدخنة معمل التكرير. ونجح أناس آخرون -كذلك- فبدأ السمك يحتشد بأعداد كبيرة في الميناء جاهزين للصيد وفي علم السماء وحدها كم كان حجم الشحنات التى بدأ تحميل السفن بها إلى نيوبيربورت وأركم وبوسطن.

سمع بعض صيادي كينجسبورت عن كمية الصيد فأتوا فى مراكبهم الشراعية، لكنهم فُقدوا عن بكرة أبيهم. لم يرهم أحدٌ مرة ثانية. وبعد ذلك مباشرة نظَّم قومنا أخوية داغون السرية، واشتروا القاعة الماسونية أمام مقر قيادة احتفالات الجلجثة لأن... ها، ها، ها! مات »إليوت« الماسوني كان ضد بيعها. لكنه اختفى عن الأنظار بعد ذلك مباشرة.

"تذكر أننى لا أقول أن أوبيد كان يستند إلى حيازة أشياء كالتى كانت على جزيرة كاناكيس. ولا أعتقد أنه كان يتحرى من البداية لا التزاوج، ولا تنشئة جيل صغير يساق إلى المياه ويتحول إلى سمك ويعيش للأبد. كان كل ما أراده منهم هي المواد التي تشبه الذهب، وكان يرغب فى عائد كبير، وأظن أن الآخرين كانوا راضين لوهلة...

"حتى العام السادس والأربعين عندما قامت المدينة ببعض البحث والتدبر فيما يحدث بها. صار عدد كبير جدا من الناس مفقودا- وانتشر الكثير جدا من التبشير الوحشى فى قداسات الأحد- وشاع الكثير جدا من الكلام حول الشعاب المرجانية. وأظن أننى شاركت بقدر يسير عندما

أخبرت سيليكتمان ماوري بما رأيته من القبة. وكانت الاحتفالات قائمة ذات ليلة عندما تبع الناس أوبيد إلى الشعاب المرجانية، ثم سمعت طلقات الرصاص تدوي بين الزوارق. وفي اليوم التالي كان أوبيد واثنين وثلاثين آخرين فى السجن، بينما يتساءل الجميع عما جرى وما كانت التهم الموجهة إليهم حتى يُسجنوا. يا إلهي، لو كان باستطاعة أي شخص أن يتنبأ بالآتي... أسبوعان بعد ذلك، لم يلق أحد في البحر أي شيء طوال هذه الفترة"...

كانت تتضح على وجه زادوك آثار الخوف والتعب الشديد، فتركته صامتا لوهلة وإن ظللت أنظر في ساعتي بقلق. كان المد يغير اتجاهه ناحيتنا الآن، وبدا أن صوت الأمواج قد أيقظه. كنت سعيدا بهذا التغير في المد، فلم تكن رائحة الأسماك سيئة للغاية مع ارتفاع الماء. ومرة أخرى اجتهدت لألتقط ما كان يهمس به.

"في تلك الليلة البشعة... رأيتهم. كنت على القبة... كانوا جماعة... حشد كبير منهم... جميعهم فوق الشعاب المرجانية يسبحون حتى الميناء إلى دخل مانوكسيت... با

إلهي. ما الذى حدث في شوارع إنزماوث تلك الليلة... قرعوا بابنا بكل قوة، لكن أبى لم يفتح... ثم تسلق خارجا من المطبخ يتلفت ببندقيته ليجد سيليكتمان ماوري ويرى ما بإمكانه القيام به... أكوام من الميتين والمحتضرين... طلقات رصاص وصرخات... الصياح فى الميدان القديم وميدان المدينة وكنيسة جرين الجديدة- انفتحت السجون... - بيان... خيانة... أطلقوا على ذلك الذي حدث «الطاعون» عندما عاد الأهالي ليكتشفوا أن نصف الناس مفقودين... ولم يبق أحد سواهم، إما أن تنضم إلى أوبيد وتلك الكائنات أو تظل ساكتا... لم أسمع شيئًا عن والدتي بعد ذلك"...

كان العجوز يلهث ويتصبب جبينه بالعرق. وصارت قبضته على منكبي أشد.

"كان كل شئ مرتبا فى الصباح- لكن بعض الآثار كانت لا تزال موجودة... تولى أوبيد نوعا ما زمام المسئولية وقال إن أمورًا كثيرة سوف تتغير... فسيتعبد الآخرون منذ الآن معنا فى وقت الصلوات، وسيتوجب على بعض المنازل القيام بتسلية الضيوف... لقد أرادوا أن يتم التزاوج كما

حدث فى كاناكيس ولم يشعر أنه مضطر عن نفسه أن يوقفهم. كان أوبيد قد اشتط... كرجل مجنون تماما. قال إنه قد جلب لنا الأسماك والكنوز وينبغى أن يحصل بالمقابل على ما طال شوقه إليه...

"لم يختلف شيء خارج المدينة، لكن كان علينا نحن فقط أن نبقى خجلين من الغرباء إذا أردنا تحري ما فيه صالحنا.

"كان علينا أن نلقي قسم داغون، ثم كان علينا بعد ذلك إلقاء قسم ثان وثالث ألقاه بعضنا. وكلما كنت متعاونا معهم بشكل خاص حصلت منهم على مكافآت خاصة -ذهب وخلافه- ولم تكن هناك فائدة من الوقوف فى طريقهم إذ كانت أعدادهم بالملايين هناك بالأعماق. ومع أنهم لا يفضلون الخروج وإبادة الجنس البشري في البداية، إلا أنهم إذا خُذِلوا واضطروا إلى ذلك فإن باستطاعتهم تحقيق وعيدهم. ولم تكن لدينا التعاويذ القديمة لاستئصالهم كما فعلت جزر بولينيزيا، ولم يكن أهل كاناكيس ليفشوا يوما أسرارهم.

"نتنازل لهم عن القرابين والتحف الصغيرة ونستضيفهم فى المدينة عندما يرغبون فى ذلك، وسيتركوننا لحالنا بما

فيه الكفاية. لن يؤذوا غريبا، فربما حمل أحدهم القصص للخارج- أعني ما لم يتطفلوا. أما من كان في زمرة المؤمنين: أخوية داجون، أو الأطفال، فلن يموتوا أبدًا، وما علينا سوى الإنابة إلى الأم هيدرا والأب داغون الذين أتينا منهما ذات يوم... لاااا! لاااا! كثولو فتاجن! بينجلوي مجلوبناف كثولو رالي وجا-ناجل فتاجا"-

كان العجوز زادوك ينزلق سريعًا إلى كلام غير مفهوم تماما فالتقطت أنفاسي. يا لروح العجوز المسكينة- إلى أي أعماق يرثى لها من الهلوسة وصل به الشراب وبغضه الشديد للفساد والغرابة والوباء المنتشر من حوله، ومن أين له هذا العقل الخصب الخلاق؟ كان قد شرع الآن يئن وانسابت الدموع فى قنوات وجنتيه إلى أعماق لحيته.

"يا إلهي، ما رأيته منذ كنت فى الخامسة والعشرين من عمري -ميني، ميني، تيكل، أوفارسين!- الأناس الذين فُقِدوا والذين قتل بعضهم بعض -كل من تحدثوا عن تلك الأشياء فى أركم أو إيبسويتش أو غيرها من الأماكن كانوا يوصمون بالجنون، كما تفكر بي الآن- لكن يا إلهى، ما رأيته-

كان عليهم أن يقتلوني منذ زمن طويل بسبب ما أعلمه، لم أقطع سوى قسم داجون الأول والثانى أمام أوبيد، ولذا ظللت حصين الجانب طالما لم تثبت هيئة من محلفيهم أننى تحدثت بأشياء مما أعرف عن عمد... لكننى لن أقطع القسم الثالث -فمن الأفضل لى أن أموت قبل ذلك-

"بدأ الضعف منذ أيام الحرب الأهلية، عندما بدأ نمو الأطفال الذين ولدوا منذ عام ستة وأربعين -أعني، بعضهم. كنت خائفا- ولم أتدخل في أي شأن بعد تلك الليلة المريعة، ولم أقترب من أحدهم طوال حياتى. أعني، من أولئك الذين لا يمتلكون دما خالصا. ذهبت إلى الحرب، ولو أنني كنت أمتلك الشجاعة أو الوعي الكافي لما عدت أبدا، ولاتخذت لنفسي مستقرا فى أي مكان آخر بعيدًا عن هنا. لكن الناس كتبوا لي أشياء لم تكن بالغة السوء. كان هذا على ما أعتقد بسبب سحب الحكومة للناس من المدينة بعد عام ثلاثة وستين. لكن الأمور عادت للسوء ثانية بعد الحرب مباشرة. وأخذ الناس في التدهور -المصانع والمحلات أغلقت- توقفت الملاحة واختنق الميناء -تم هجر السكة

حديد- لكنهم... لم يتوقفوا أبدا عن السباحة في النهر ومن شعاب إبليس المرجانية الملعونة- تم إغلاق المزيد والمزيد من عليات البيوت بالأخشاب، وكنت أسمع المزيد والمزيد من الضوضاء فى البيوت التى يُفترَض أن أحدا لا يسكنها...

"كان للناس بالخارج قصصهم عنا- وأحسب أنك قد سمعت الكثير منها بالنظر إلى الأسئلة التى تسألها- قصص عن أشياء كانوا يرونها بين الحين والآخر، وعن الحلي الغريبة التى لا تزال تأتى إلى البلدة من أماكن ما ولم يتم صهرها بشكل جيد- لكن شيئًا لم يتضح قط. لم يصدق أحد أي شيء. يطلقون على المواد التي تشبه الذهب غنيمة القرصان ويقولون أن لأهالي إنزماوث دماء أجنبية أو أن بهم مرض أو علة ما. إلى جانب أن من يعيشون هنا يلفتون أنظار أكبر قدر من الغرباء، ويحذرون البقية من أن يصبحوا فضوليين زيادة، خاصة فى الليل. إذ تعترض الوحوش الطريق على الخلائق -لم تكن المنازل آمنة- لكن متى كانت لديهم سيارات فقد كان كل شئ على ما يرام.

"تزوج القبطان أوبيد بزوجة ثانية لم يرها أحد من قبل

فى المدينة سنة ستة وأربعين -ويقول البعض أنه لم يرغب فى ذلك لكنهم أجبروه على ذلك عندما تم استدعائه- وأنجب منها ثلاثة أطفال -اختفى اثنان منهم فى الصغر غير فتاة واحدة كانت تبدو كأي شخص آخر، تلقت تعليمها فى أوروبا. واستطاع أوبيد بالاحتيال إيجاد زوج لها من أركم لم يكن يشك فى شيء. وسوى هذا لا توجد أية علاقة لإنزماوث بأي شخص خارجها. وأما بارنباس مارش الذي يدير معمل التكرير الآن فهو حفيد أوبيد من زوجته الأولى- ابن أونسيفوراس، ابنه الأكبر، لكن أمه لم تكن مثلهم فلم يرها أحد أبدا بالخارج.

"في هذه الآونة كان بارنباس على وشك أن يتحول. ما عاد يستطيع إغلاق عينيه بعد الآن كما أن شكله تبدل بالكامل. ويقال أنه لا يزال يرتدى ملابسه، لكنه سوف يساق إلى الماء في أقرب وقت. وربما جرب ذلك بالفعل -فهم يذهبون للأعماق في بعض الأوقات لإلقاء القليل من التعاويذ قبل أن يستقروا هناك بشكل نهائي. لم يعد أحد يرى بارنباس فى الأماكن العامة لما يقرب من عشر سنوات الآن.

ولا أدرى كيف تشعر زوجته المسكينة -التي جاءت من إيسويتش، وكانوا على وشك إعدام بارنباس بسبب تودده إليها من خمسين عاما ماضية. مات أوبيد سنة ثمانية وسبعين واختفى الجيل التالى كله الآن- مات أبناء الزوجة الأولى، والبقية... الله أعلم"...

كان صوت المد المتزايد قد صار الآن ضاغطا، وبدا أنه يغير مزاج الرجل العجوز شيئًا فشيئا من الحزن الجياش إلى الخوف والتأهب. كان يتوقف بين الحين والآخر ليستعيد تلك النظرات القلقة إلى ما وراءه أو نحو الشعاب المرجانية وبالرغم من لا معقولية قصته الوحشية، فلم أتمكن من مقاومة مشاركته الشعور بالقلق. صار صوت زادوك الآن أعلى، كما لو كان يحاول أن يستنهض شجاعته بالكلام بصوت مرتفع.

"هه، لماذا لا تتحدث؟ كيف تحب العيش فى مدينة كهذه، مع كل شيء يتعفن ويحتضر، بينما تزحف الوحوش المحبوسة وتغمغم وتنبح وتثب حول السراديب المظلمة والعليات أينما وليت وجهك؟ هه؟ ما رأيك بسماع العويل ليلة بعد أخرى

آتيًا من الكنائس ومن قاعة أخوية داغون، وأنت تعلم ما الذى يفعله بالنفس قليلٌ من العويل؟ ما رأيك بسماع ما يأتي من الشعاب المرجانية المريعة فى عشية مايو أو في عيد القديسين كل عام؟ هه؟ أتظن أن الرجل العجوز مجنون. أه؟ حسنا يا سيدي دعنى أخبرك أن هذا ليس الأسوأ"!

كان زادوك يصرخ الآن فعلا. كان صوته المجنون المستعر يزعجني فوق ما أحتمل.

"عليك اللعنة لا تجلس لتحدق بى هكذا بهاتين العينين- لقد أخبرت أوبيد مارش أنه فى الجحيم وأن عليه أن يبقى هناك! ها، ها... فى الجحيم قلت له ذلك! ولم ينل مني- لم أقم بأي شيء ولم أخبر أحدا بشيء-

"أوه، أنت، أيها الصغير؟ حسنا، حتى لو لم أقل لأحد أي شيء من قبل فإنني أفعل ذلك الآن! لقد بقيت جالسا تنصت لما أقوله أيها الفتى- هذا ما لم أقله يوما لأحد... أقول أننى لم أتدخل في أي شأن بعد تلك الليلة- لكننى وجدت الأشياء من حولي كما هي"!

"تريد أن تعرف ما هو الرعب الحقيقى ها؟ حسنا،

إليك هذا -إنه لا يتعلق بما قام به شياطين الأسماك، بل بما سيقومون به! إنهم يقومون بإخراج الكائنات من مكانها إلى المدينة- ظلوا يفعلون ذلك لسنين ثم بدأوا فى التواني مؤخرا. تمتلئ بهم البيوت شمال النهر بين الماء وشارع «ماين» -أولئك الشياطين وما كانوا يجلبونه- وعندما سيكونون جاهزين... أقول عندما يكونون... هل سمعت أبدا عن شوغوث؟

"ها، هل تسمعنى؟ أؤكد لك أنني أعرف ما هي تلك الكائنات -فقد رأيتهم ذات ليلة عندما... إهيههها!اه! إهيههه"...

كادت أن تفقدني وعيي تلك المفاجأة المرعبة وذلك الخوف الوحشى فى صرخة العجوز. اتجهت نظراته التى تخطتني إلى البحر كريه الرائحة، وانطلقت بثبات من رأسه بينما كان وجهه قناعًا من الخوف جديرًا بتراجيديا إغريقية. غاصت أصابعه النحيلة بشكل وحشى فى منكبي ولم تصدر عنه أي حركة عندما التفتت برأسي لأنظر إلى ما كان يرمقه.

لم يكن هناك شيء باستطاعتي أن أراه. لا شيء سوى المد المتعاظم، ومجموعة من الأمواج القريبة من صف الحجارة

البعيد الذى يصد الأمواج. كان زادوك الآن يهزني، فالتفت إليه لأرى ذوبان ذلك الوجه المتجمد من الخوف وأرى جفونه ترتعش ولسانه يغمغم بكلمات غير مفهومة في فوضى. ثم عاد إلي صوته الآن- كما لو كان همسا مرتجفا.

"ارحل من هنا! ارحل من هنا! لقد رأونا- انج بحياتك! لا تنتظر أي شيء- إنهم يعرفون الآن- انج بها- بسرعة- من هذه المدينة"-

انكسرت موجة ثقيلة أخرى على أطلال رصيف الميناء المهجور وحوّلت همسَ العجوز المجنون إلى صرخة أخرى وحشية ودموية مروعة. "إياهههه!... يهياااااااا"...

وقبل أن أستطيع جمع شتات ذهني كان هو قد أرخى قبضته عن منكبي واندفع بعنف إلى شوراع المدينة، يترنح باتجاه الشمال حول جدار المستودع المتهدم.

ألقيت نظرة أخرى على البحر، لم يكن ثمة شيء هناك. وعندما وصلت شارع "واتر" ونظرت بامتداده إلى جهة الشمال لم يكن هناك أي أثر لزادوك ألين.

(٤)

من العسير أن أصف الحالة التى تركتني عليها تلك الحكاية المروعة- الحكاية التي كانت مجنونة ومثيرة للشفقة فى الوقت نفسه، غريبة ورهيبة. ومع أن فتى البقالة كان قد أعدني لمثل هذا إلا أن الواقع جعلني ذاهلا ومضطربًا. كانت القصة صبيانية ومع ذلك كان صدق العجوز زادوك وذعره المجنونان قد نقلا إلىَ قلقا متزايدا أضيف إلى الإحساس الباكر بالاشمئزاز من المدينة التي يعشش فيها فساد ظلام غير ملموس.

ربما أقوم لاحقًا بتمحيص الحكاية لإخراج نواتها المستعارة من التاريخ، أما الآن فلا آمل إلا لو استطعت إخراجها من رأسي. تأخر الوقت تماما -أشارت ساعتى

إلى ٧:١٥، والباص المتجه إلى أركم يغادر ميدان المدينة في الثامنة- فحاولت درء أفكارى بشكل عملي وبلا انفعال قدر المستطاع. وحثثت السير خلال الشوارع المهجورة الخالية التى تغص بالأسقف ذات الفجوات وبالمنازل المائلة في تجاه الفندق الذي أودعتُ فيه حقيبتي وحيث سأجد الباص.

كان لون الأشعة الذهبى في دقائق الأصيل الأخيرة يضفي على البيوت القديمة والمداخن المتهالكة مسحة جمال وسلام غامضة، لكنني ظللت ألتفت إلى الوراء بين الفينة والأخرى رغما عني. لو أننى غادرت إنزماوث كريهة الرائحة المظللة بالمخاوف لبلغت بلا شك غاية السعادة، وأخذت آمل لو كانت هناك مركبات أخرى غير الباص الذى يقوده ذلك الرجل المشئوم المنظر سارجنت. لكنني لم أتابع مع ذلك حث المسير بسبب التفاصيل المعمارية التي كانت تستحق النظر عند كل زاوية، ولأنني، كما حسبت، أستطيع أن أقطع المسافة اللازمة بسهولة فى نصف ساعة.

تأملت الخريطة التى رسمها فتى البقالة وبحثت عن طريق لم أتخذه من قبل، ثم اخترت شارع "مارش" بدلا من

شارع "ستيت" لأصل إلى ميدان المدينة. قرب منعطف شارع "فول" رأيت مجموعات متفرقة تتناجى فيما بينها، وعندما انتهيت إلى الميدان رأيت معظم المتسكعين متجمهرين حول باب "جلمان هاوس". بدا كما لو أن العديد من الأعين المنتفخة المائية التى لا ترمش، فى ردهة الفندق، كانت تنظر ناحيتي بغرابة وأنا أطلب حقيبتي، كنت آمل أن لا يكون من بين هذه المخلوقات الكريهة من سيسافر معي على متن الباص.

وسمعت صوت وصوله المزعج قبل موعده في الثامنة، يستقله ثلاثة ركاب. تمتم رجل قبيح الهيئة يقف على الرصيف إلى السائق ببعض الكلمات التى لم أميزها، فألقى سارجنت حقيبة البريد ولفة الجرائد ودخل إلى الفندق، بينما نزل المسافرون -الرجال الذين رأيتهم مقبلين فى نيوبيريبورت تلك الصبيحة أنفسهم- متثاقلين على الرصيف يتبادلون في تكاسل بعض الكلمات المتحشرجة الخافتة، بلغة أكاد أقسم أنها لم تكن إنجليزية. صعدت إلى الحافلة الخالية واتخذت المقعد الذى كنت أجلس فيه عندما أتيت، لكننى لم أكد أستقر في مكاني حتى عاود سارجنت الظهور، وبدأ يُرغي

في كلامه بصوت مبحوح مثير للاشمئزاز بصورة استثنائية.

كنت، كما اتضح، عاثر الحظ. فالمحرك أصابته علة ما لا يمكن للباص معها أن يكمل رحلته إلى أركم، رغم الوقت القياسي الذى جاء به من نوبيريبورت. لا، لم يكن من الممكن إصلاحه فى تلك الليلة، ولم تكن هناك طريقة أخرى للانتقال من إنزماوث سواء إلى أركم أو إلى أي مكان آخر. كان سارجنت آسفا وكنت مضطرا إلى البقاء فى "جلمان". ربما سيتساهل الموظف معى فى سعر المبيت، لم تكن باليد حيلة غير هذه. غادرت الباص، دائخًا تقريبًا من هذه العقبة المفاجئة، ومن فكرة أن أقضي طول الليل في هلع بهذه المدينة المتعفنة الكئيبة، وعدت مرة أخرى إلى ردهة الفندق حيث أخبرني موظف النوبة الليلية المتجهم صاحب المظهر الغريب أن بإمكاني النزول فى الغرفة ٤٢٨ التي تقع في الطابق الأخير -واسعة، لكنها من دون مياه- مقابل دولار.

وقّعت فى سجل النزلاء، رغم ما سمعته عن الفندق فى نيوبيريبورت، ودفعت الدولار، وتركت للموظف حقيبتي، وتبعت ذلك المرافق المنطوي البغيض صاعدا ثلاثة سلالم تئز

مع خطواتنا وأنا أجتاز ممرات متربة بدت خالية تماما من أي مظهر من مظاهر الحياة. كانت غرفتى ضمن الغرف الكئيبة فى نهاية المبنى، لها نافذتان وبها أثاث رخيص مجرد، تطل على فناء قذر محاط بمجموعة مبان سكنية مهجورة وتشرف على مشهد من الأسطح المتداعية التى تمتد جهة الغرب وعلى الريف المليء بالمستنقعات فيما وراءها. كان الحمام فى نهاية الممر - قديم مخيف، به وعاء رخامي عتيق وحوض من القصدير ومصباح كهربائى خافت وألواح خشبية بالية تغطي تركيبات السباكة.

كان الوقت لا يزال نهارا فنزلت إلى الميدان وبحثت فى الأرجاء عن وجبة غداء. كنت ألاحظ النظرات الغريبة التى يوجهها إليّ المتسكعون الكريهون. وبما أن محل البقالة كان مغلقا، فقد اضطررت للتوجه إلى المطعم الذى تجنبته من قبل، وكان فى استقبالي هنالك رجل متقوس الظهر ضيق الجبهة له عينان جاحظتان لا تطرفان، وفتاة ذات أنف مفلطح ويدين خشنتين غليظتين بشكل مدهش. كانت الخدمة هنا أن أختار من بين المعروض، فأتاح لي هذا انتقاء ما كنت أريده بوضوح

من بين المعلبات والعبوات. وكان يكفينى وعاء من شربة الخضار ورقائق البسكوت، فتوجهت بعد شرائها سريعا إلى غرفتي الكئيبة فى جلمان وقد التقطت من كشك بيع الصحف المتهالك الذي يقف به رجل بغيض السحنة جريدة مسائية ومجلة منمشة بونيم الذباب.

عدت إلى السرير الرخيص ذى الإطار الحديدي لما اشتدت حمرة الغسق، وحاولت أن أتابع القراءة التى بدأتها على ضوء المصباح الكهربائي الواهن ما استطعت. شعرت أن من المستحسن إبقاء بالي مشغولا تماما حتى لا يلتفت إلى غرائب هذه المدينة العتيقة المليئة بالفساد والظلام طالما كنت داخل حدودها. ولم تكن الحكاية التي سمعتها من السكّير المسن تبشر إطلاقا بأي أحلام سعيدة، وعرفت أن من الضروري إبعاد صورة عينيه المائيتين الوحشيتين عن مخيلتي.

كان على أيضا ألا أفكر كثيرا فيما قاله مفتش المصنع لعامل التذاكر فى نيوبيريبورت عن "جلمان هاوس" وعن أصوات نزلائه الليليين- لا في ذلك، ولا في الوجه الذى كان يحمل التاج فى مدخل الكنيسة المظلمة، الوجه الذى كان اكتشاف

عدة رعبه أمر يستعصي على عقلي الواعي. وربما كان يسيرا عليّ إبقاء ذكري بعيدا عن الموضوعات المزعجة لو لم تكن الغرفة منعفنة بشكل رهيب. ولأنها كانت كذلك بالفعل فقد امتزجت عفونتها القاتلة بشكل بشع مع رائحة السمك المنتشرة فى المدينة قاصرةً خيال المرء على الموت والفساد بكل إلحاح.

شيء آخر كان يزعجني أيضا هو عدم وجود مزلاج لباب الغرفة. غير أن العلامات الواضحة على الباب كانت تدل على أن المزلاج كان موجودا ولم تتم إزالته إلا حديثا. لا شك أنه لم يكن صالحا كمعظم الأشياء الأخرى فى هذا البناء البالي. نظرت حولي فى عصبية فاكتشفت مزلاجا على مكبس الملابس بدا في حجم المزلاج السابق نفسه بالنظر إلى العلامات على الباب، وسعيا لراحة جزئية من هذا التوتر العام شغلتُ نفسي بتركيب قِطَعه إلى موضعها الخالي مستخدما أداة يدوية ٣×١ بها مفك براغي كنت أحتفظ بها مع ميدالية مفاتيحي. كان المزلاج مناسبًا تمامًا، فاسترحت نوعًا ما عندما تأكدت أن بإمكاني إغلاقه على نفسي بإحكام. لم يكن لدي تخوف حقيقي يجعل هذا ضروريًا، لكنني كنت

أرحب بأي شيء يرمز للأمان فى بيئة بهذه الشاكلة. وعلى البابين اللذين يصلان غرفتي بالغرف المجاورة وجدت مزلاجين فعملت على إغلاقهما بإحكام كذلك.

لم أتخفف من ملابسي، بل قررت أن أقرأ حتى يصيبني النعاس فأستلقي بمعطفي وقلادتي فقط وقد خلعت حذائي. التقطت مصباح جيب من حقيبتي ووضعته فى سروالي حتى أتمكن من النظر في ساعتي إذا ما تيقظت في وقت متأخر من الليل. ورغم ذلك لم يأت النعاس، ولما توقفت عن تحليل أفكاري انتبهت إلى عدم ارتياحي لأنني كنت في الواقع أنصت، بشكل لا واع، إلى شيء ما- إلى شيء ما كان يفزعني ولا يمكنني تحديده. لابد أن قصة المفتش كانت تعمل فى مخيلتي أعمق مما ظننت. وحاولت مجددا أن أقرأ، لكني وجدت نفسي لا أحرز تقدما في القراءة.

مر بعض الوقت، وظننت أنني أسمع صرير الدرجات والممرات بشكل متقطع كما لو كان ذلك لوقع خطوات أقدام، وتسائلت ما إذا كانت الغرف الأخرى قد بدأت تمتلئ. لم يكن هناك رغم ذلك صوت أشخاص، ثم فجأة

اكتشفت شيئًا دقيقا وغامضا يتعلق بهذا الصرير. لم يعجبنى ذلك، وترددت فيما إذا كان يحسن بي أن أنام على الإطلاق. هذه البلدة تنطوي على أشخاص شديدي الغرابة، ولا شك أن كثيرًا من حوادث الاختفاء قد وقعت بها. هل كان هذا النزل مكانا يذبحون فيه المسافرين من أجل المال؟ لم يكن يدل مظهري بالتأكيد على الثراء المفرط. أم كان أهل المدينة يضيقون إلى هذا الحد بفضول الزائرين؟ هل أثارت سياحتي العامة واطلاعي المتكرر على الخريطة انتباها غير مرغوب فيه. وخطر لي أنني كنت بالضرورة أبالغ في القلق حتى يتسنى لنذر من الأصوات الغريبة العشوائية دفعي إلى التفكير بهذه الطريقة- غير أني شعرت بالأسف كذلك لكوني أعزلا.

وبعد شعور طويل بالإرهاق الشديد الذى لم يتخلله شيء من النعاس قمت بإغلاق المزلاج الذي ركبته حديثا على الباب المفضي للردهة، وأطفأت النور وألقيت نفسي ممددا على السرير الصلب غير المستوي- بمعطفي والفلادة والحذاء وكل شيء. بدت أكثر الأصوات خفوتا في الليل مثل ضجة، واجتاحني على نحو مضاعف سيل من الأفكار

المزعجة. شعرت بالندم أنني أطفأت النور، لكني كنت متعبا للغاية فلم أنهض لأوقده من جديد. وبعد ذلك بفترة موحشة تصدرتها أصوات صرير الدرجات والممرات بنشاط بدأ صوت ناعم لعين لا تخطؤه الأذن فى الظهور، بدا مثل تجسيد مشؤوم لكل مخاوفي. بدون أدنى شك كان هناك مفتاح يدور -بحذر، وخلسة وتردد- في قفل باب غرفتي.

ربما لم تكن مشاعري بذلك القدر المتوقع من الاضطراب عندما أدركت إشارة الخطر الفعلي هذه بسبب مخاوفي السابقة التي لم أستطع تبينها. كنت مستعدا بشكل غريزي، وإن بلا سبب محدد، لمواجهة أي شيء قد يظهر- الأمر كان لصالحي في الأزمة الحقيقية الآن، أيا تكن عند اتضاحها. كان التغير في نوع التهديد رغم ذلك، من التحذير المبهم إلى الواقع المباغت، صدمة مذهلة نزلت بي كصاعقة فعلية. لم يحدث أبدا أن أخطأ إحساسي بشكل كامل. لم يكن باستطاعتي توقع أي شيء سوى غرض مؤذ، فلبثت ساكنا كالأموات أنتظر ماذا سيفعل ذلك الغريب.

وبمرور بعض الوقت توقف دوران المفتاح الحذر،

وسمعت المفتاح يَفتح الغرفة جهة الشمال بنجاح، ثم عاود المفتاح الدوران فى قفل الباب الموصِّل إلى غرفتي من المجاورة لها. وظل المزلاج بالتأكيد عالقا، فسمعت صرير الأرضية بينما يغادر ذلك المتسلل الغرفة المجاورة كذلك. ومرت دقيقة ثم عاد صوت الدوران الناعم مرة أخرى، وعرفت أنه كان يدخل الآن الغرفة الجنوبية. ومرة أخرى كانت هناك محاولات مختلسة مع الباب الواصل بين الغرفتين، ومرة أخرى أخذ صوت الصرير يخفت مبتعدا. لكن هذه المرة تحرك صوت صرير الأرضية بطول الردهة ونزل الدرجات، فعرفت أن المتسلل قد استسلم لانغلاق الأبواب المحكم وتخلى عن محاولته لوقت قد يطول أو يقصر، كما سيظهر في المستقبل.

إن التأهب الذي وضعني في خطة عمل أثبت أني كنت بلا وعي أخشى تهديدا حقيقيا دارسا الطرق الممكنة للهرب لساعات. لقد أحسست منذ الوهلة الأولى أن ذلك الشعور بالقلق كان يشير إلى خطر ليس على أن أواجهه أو أتعامل معه، بل أن أهرب منه فقط بأسرع ما يمكن. لقد كان هدفي الأول هو الفرار حيا من هذا الفندق بأقصى ما أستطيع من السرعة،

ومن خلال طرق أخرى غير السلالم الأمامية والردهة.

نهضت برفق وأوقدت مصباح الجيب، سعيت لإضاءة المصباح فوق السرير بغرض التقاط بعض أشيائي ووضعها في جيبي لأهرب خفيفا بدون الحقيبة. لكني لم أقم بشيء من ذلك، وانقطعت الكهرباء. صار من الجليّ أن تحركا خفيا شريرا كان يقوم وفق مخطط كبير- لكن ما هو، لست أدري. وبينما كنت واقفا أفكر ويدي على المفتاح الكهربائي الذى لم تعد له أي فائدة طرق سمعي صوت صرير خافت في الطابق الأسفل، وفكرت أني أستطيع بالكاد تمييز أصوات المحادثة الجارية. لكني لم أعد بعد لحظة متأكدا تماما إذا ما كانت تلك الأصوات المنخفضة أصوات بشر، بما أن النباح الأجش الواضح والنعيق المتقطع لم يكونا يحملان سوى أقل التشابه مع النطق الآدمي المعروف. ثم فكرت، مُكرَهًا من جديد، فيما كان سمعه مفتش المصنع بتلك الليلة فى هذا المبنى البالي الشيطاني.

وضعت قبعتي، بعدما كنت قد وضعت فى جيبي ما يساعدني على الإضاءة، ووقفت فى النافذة لأقدّر الفرص الممكنة للنزول. لم يكن هناك سلم نجاة بهذا الجانب من

الفندق على الرغم من قواعد السلامة الدولية، وكانت النوافذ على ارتفاع ثلاث طوابق من الفناء المرصوف. هناك بعض البنايات التجارية القديمة على جانبي الفندق مع ذلك، تقترب أسطحها المائلة لمسافة يمكن اجتيازها في قفزة من الطابق الرابع الذي كنت فيه. لكن حتى أصل إلى أي من صفوف هذه المباني، كان عليّ أن أصل إلى ثاني غرفة بعد الغرفة المجاورة -سواء ناحية الشمال أو ناحية الجنوب- وبدأ ذهني يفكر فورا فى الفرص المتاحة للقيام بهذا الانتقال.

لم أكن أستطيع، كما قررت، أن أخاطر بالظهور فى الممر حيث ستكون خطواتي مسموعة بكل تأكيد وسيكون الدخول للغرفة المستهدفة صعبا بصورة لا يمكن تخطيها، فالواجب إذن أن يكون التحرك الذي أريده، إذا كان ممكنا القيام به من الأساس، خلال أقل الأبواب التى تصل بين الغرف إحكاما، أي خلال الأقفال والمزاليج التى سيتوجب على فتحها بالعنف مستخدما منكبي كما.قّ إذا كانت موصدة. وهذا سيعتمد، حسبما أعتقد، على طبيعة المنزل وتركيباته المتداعية، لكنى أدركت أننى لا أستطيع القيام بذلك دون

إحداث ضجة. لابد إذن من أن يكون اعتمادي على السرعة لا غير، وعلى فرصة الوصول للنافذة قبل أن يتم تنسيق أي قوة عدائية بما يكفي لفتح الباب الأيمن من ناحيتي بالمفتاح. دفعت المنضدة خلف باب غرفتي المفضي إلى الردهة- بتأن، كي لا يصدر عنه إلا أدنى حد من الضوضاء.

كنت مدركا أن فرصي هزيلة للغاية، وأنها معرضة بشكل كامل لأي نكبة. وأنني حتى لو وصلت إلى سطح آخر فلن يكون هذا حل المشكلة، إذ ستظل مهمة الوصول للشارع والفرار من المدينة كلها مشكلة قائمة. الشيء الذى كان يصب فى مصلحتي هو حالة المباني المجاورة الخالية والمتهدمة وعدد الفجوات المظلمة المفتوحة بالمناور فى كل صف من صفوف تلك المباني.

استنتجت من خريطة فتى البقالة أن أفضل الطرق للخروج من المدينة كان باتجاه الجنوب، فألقيت أولًا نظرة على الباب الذى يربط غرفتي بالغرفة الجنوبية. كان الباب مصمما بحيث يفتح باتجاهي ومن ثم رأيت -بعدما جذبت المزلاج ووجدته مغلقا من الجهة الأخرى- أن من غير المناسب دفعه

بالقوة. وبناء على ذلك تخليت عن ذلك الطريق، وحركت السرير بحذر خلفه لأعوق أي هجوم قد يأتي بعد ذلك من الغرفة المجاورة. وكان باب الغرفة الشمالية يُفتح من جانبي، فعرفت أن هذا الباب -على الرغم من أنه كان مغلقا من الجهة الأخرى عندما جربت فتحه- سيكون طريقى. فإذا ما استطعت الوصول إلى أسطح مبانى شارع "باين" والنزول منها بنجاح إلى الشارع، لتمكنت ربما من الإنطلاق خلال فناء المبنى المجاور أو المقابل إلى "واشنطن" أو "بايتس" -أو استطعت الوصول بطريقة أخرى إلى "باين" لأدور حوله باتجاه الجنوب إلى "واشنطن". على كل حال فقد كنت أهدف إلى الوصول لشارع "واشنطن" بطريقة ما ثم أهرب سريعا من منطقة ميدان المدينة. كان تجنب "باين" أولويتي لأن محطة الإطفاء هناك وقد تكون مفتوحة طوال الليل.

رحت أنظر، بينما كنت أفكر فى هذه الأشياء، إلى الخارج ناحية البحر القذر خلف الأسقف المنهارة أمامي، كان يلتمع الآن فى ضوء القمر الذى لم ينقص عن تمامه إلا بمقدار قليل. كانت المصانع ومحطة السكة الحديد المهجورة تلتصق بجانب

مجرى النهر، الذى يشبه جرحا على يمين المشهد البانورامى، كمحار اللزيق البحري. ومن خلفه تقع قضبان السكة الحديد الصدأة وطريق "رولي" الذي يقود لخارج المدينة خلال مناطق منبسطة من المستنقعات تتخللها جزر صغيرة كنقاط من اليابسة المرتفعة الجافة ذات الأشجار الكبيرة. أما على اليسار فكان جانب البلدة المعزول بضفة النهير أقرب. وكان طريق إيبسويتش الضيق يلتمع بالبياض فى ضوء القمر. ولم أكن أستطيع أن أرى من مكاني فى الفندق الطريق الجنوبي الذى كنت أنوي اتخاذه إلى أركم.

كنت حائرا فى تحديد الوقت الذى سأقتحم فيه باب الغرفة الشمالية وكيف أقوم بذلك مراعيًا إصدار أقل صوت ممكن عندما لاحظت أن الضوضاء المبهمة أسفل مني قد حلت مكانها الآن أصوات صرير جديدة وثقيلة تصعد السلالم. ظهر وميض متردد خلال نافذتي، وبدأت عوارض الممر الخشبية تئن من حمل ثقيل. تدانت أصوات خافته من مصدر صوتي محتمل، ثم دق باب غرفتي دقات ثابتة.

التقطت أنفاسي للحظة وانتظرت. بدا لي كأن الدهر

ينقضي، وازدادت رائحة المكان السمكية المقرفة فجأة بشكل مدهش. ثم تكرر الطرق على الباب -بشكل مستمر، وبإصرار متنام. علمت أن وقت التحرك قد آن، وحينها أدرت مزلاج باب الغرفة الشمالي مستعدا لفتحه بالقوة. صار صوت الطرق أعلى، فأملت أن يغطي صوته العالي على صوت محاولاتي. وفي النهاية بدأت، فرحت أدفع اللوح الضعيف للباب مرة وراء الأخرى بمنكبي، غافلا عن أي صدمة أو ألم. صمد الباب أكثر مما كنت أتوقع لكنني لم أستسلم، بينما كانت الضجة على باب غرفتي تشتد طوال الوقت.

وانفتح باب الغرفة الشمالية أخيرا، لكن علمت أثناء ارتطامه أن هؤلاء الواقفين بالخارج سمعوه بالضرورة. وبإصرار أكبر صار القرع بالخارج على الباب خبطا عنيفا، بينما رن صوت المفاتيح المنذرة فى أبواب غرف الردهة على جانبي غرفتي. ركضت خلال الباب الذي فتحته، ونجحت فى إغلاق مزلاج الغرفة الشمالية قبل أن يفتحوا الباب المفضي للردهة، لكنني سمعت، حتى بعدما فعلت ذلك، صوت المفتاح يُدار في باب الغرفة الثالثة- التى كنت آمل أن أصل

للسطح الذي يقع أسفل منها.

شعرت للحظة بيأس مطبق، وبدا حصاري محكما فى هذه الغرفة التى لم تكن تحتوي على أي نافذة. وغمرتني موجة استثنائية من الرعب بشكل كاسح، عندما حاصرتني بشكل مريع، وشعور بوحدة لا توصف، الآثار التى أضاءها ضوء مصباح الجيب على الغبار، والتى تركتها خطوات الغريب الذى حاول فتح باب غرفتي أول مرة. لكنني تخيلت -بشكل آلي، كشخص ملتاع لا يزال يقاوم رغم وضعه الميئوس منه- أن الباب الموصل إلى الغرفة المجاورة قد انفتح وأنني اقتحمتها فى الظلام جاهدا للوصول إلى مزلاج بابها الرئيسي -مفترضا أن يكون مزلاجها سليما لحسن حظي كما فى الغرفة السابقة- وأنني أغلقته قبل أن يعمل فيه الذي يقف بالخارج مفتاحه.

كانت فرصة الحظ قد منحتنى مهلة من الوقت- إذ لم يكن الباب الواصل بين الغرفتين أمامى غير مغلق فقط بل كان فى الواقع مواربا. وكنت أفكر بشكل لحظي، فدفعت بمنكبي وركبتي اليمنى الباب الموصل للردهة والذى كان يفتح للداخل بشكل ظاهر. فباغتت باندفاعي الشخص

الذى كان يفتح الباب، فانغلق دونه لما دفعته بحيث تسنى لي إغلاق المزلاج الذى كان بحالة جيدة كما فعلت تماما بالباب الآخر. وبحصولي على هذه المهلة سمعت الضرب على البابين الآخرين قد توقف، بينما ظهرت الضجة المرتبكة على الباب الواصل بين الغرف والذى أسندت السرير إليه من قبل. بدا واضحا أن مجموعة المهاجمين قد دخلوا الغرفة الجنوبية مستعدين لهجوم جانبي. وفي اللحظة نفسها تردد صوت المفتاح فى باب الغرفة الشمالية المجاورة، فعلمت أني سأواجه خطرا أقرب.

فتحت الباب الموصل للغرفة الشمالية على اتساعه لكن لم يكن هناك وقت للتفكير فى التحقق من قفل باب الردهة الذى كان بالفعل يُفتح. كل ما استطعت فعله هو أن أدفع باب الغرفة الشمالية المفتوح وأغلقه بالمزلاج، والشيء نفسه مع الجهة الأخرى- دافعا السرير خلف هذا الباب والمكتب خلف الآخر، ومحركا حوض الحمام خلف باب الردهة. كان على كما تراءى لي أن أثق في مثل هذه الحواجز المؤقتة لإعاقتهم حتى أتمكن من الخروج من النافذة والوصول لسقف مبنى

شارع "باين". لكن حتى في تلك اللحظة العصيبة كان رعبي الأساسي يتعلق بشيء منفصل تماما عن نقطة الضعف الحالية لدافاعاتي. كنت أرتعد لأن من يطاردوننى لم يكن من بينهم، بغض النظر عن بعض اللهاث البشع والنخير والعواء الخافت المتقطع بشكل غريب، من يتلفظ بصوت واضح مفهوم.

انتهيت من تحريك الأثاث وتوجهت إلى النوافذ فسمعت ركضا وهرولة مفزعة بطول الممر فى تجاه الغرفة الشمالية من غرفتي، أدركت أن الضرب على باب الغرفة الجنوبية قد توقف. وفيما يبدو فإن المطاردين كانوا يجتمعون على الباب الضعيف الموصل لغرفتي والذي يعلمون بالضرورة أنه سيُفتح عليّ مباشرة. كان القمر فى الخارج يضيء رافدة المبنى بالأسفل، وتراءى لي أن القفزة ستكون كارثية بصورة مؤيسة؛ لشدة انحدار سطح المبنى الذى يجب أن أصل إليه.

ونظرا إلى الظروف، قمت بإختيار أقرب النافذتين إلى الجنوب الذي سأهرب باتجاهه، وخططت للنزول على المنحدر الداخلي للسطح بحيث أتوجه إلى أقرب منور. وبمجرد أن أصل إلى إحدى تجويفات البناء سيكون عليّ

الاستعداد للمطاردة، لكنني كنت آمل أن أنجح فى النزول وتفادي المداخل الداخلية والخارجية الفاغرة بطول الفناء المظلم، حتى أتمكن فى النهاية من الوصول إلى شارع "واشنطن" وأنسل من المدينة باتجاه الجنوب.

كانت الضجة الآن على الباب الشمالى مروعة، ولاحظت أن الألواح الضعيفة للباب قد بدأت تتكسر. كما اتضح أن المحاصرين جلبوا بعض الأدوات الثقيلة ليدكوا بها الباب لكنهم على الرغم من ذلك بقوا ثابتين، وهكذا كان لدي على الأقل فرصة واهية لإتمام هروبي بنجاح. ولاحظت وأنا أفتح النافذة أنها محاطة بستائر مخملية ثقيلة معلقة إلى سارية بحلقات نحاسية، وأن مزلاجا كبيرا بارزا لمصراعيها يقع على الجهة الخارجية منها. ولما رأيت أن هذه الوسائل يمكنها أن تجنبني خطورة القفزة، تعلقت بالستائر وجذبتها للأسفل، الستائر والسارية التى تتعلق بها وكل شيء، ثم علقت اثنتين من الحلقات بسرعة في مزلاج المصراع مدليا الستائر للخارج، فوصلت طياتها الثقيلة بشكل كامل إلى السطح المجاور، وبدا لي أن الحلقات والمصراع سيتحملان

كامل وزني، فقفزت خارج النافذة ونزلت متشبثا بسلم الحبال الذى صنعته ارتجالا، تاركا ورائي للأبد ذلك المبنى الرهيب الملآن بالرعب "جلمان هاوس".

هبطت بسلام على الألواح غير الثابتة للسطح المنحدر، ونجحت فى الوصول إلى فجوة المنور المظلمة دون تعثر. ونظرت إلى النافذة التى تركتها فوجدتها لا تزال مظلمة، على الرغم من أنني رأيت فوق المداخن المتداعية باتجاه الشمال أضواء مشئومة تتوهج فى قاعة أخوية داغون والكنيسة البابوية وكنيسة الأبرشانوين التي تذكرتها مرتجفا. لم يبد أن أحدًا بالفناء في الأسفل، فتمنيت أن أحظى بفرصة للهرب قبل أن ينتشر تحذير عام. أضأت مصباحي الجيبي داخل المنور، فلم أجد أية سلالم للنزول. لكن المسافة كانت قريبة مع ذلك فتعلقت بالحافة وقفزت مثيرا غبار الأرضية الذى كان منتشرا على الصناديق والبراميل المتهالكة.

كان المكان بشعا، لكنني كنت أتجاوز التفكير فى مثل هذه الانطباعات بينما أتفقد الطريق إلى سلالم المبنى بضوء مصباحي -بعدما ألقيت نظرة سريعة على ساعتي التى

أشارت إلى الثانية صباحا. كانت خطواتي تصدر صريرا على السلالم لكنه بدا محتملا، فأسرعت النزول متجاوزا الطابق الثاني، الذى كان يشبه الاسطبل، إلى الطابق الأرضي. كان المكان مهجورا تماما والصدى يردد وقع خطواتي فيه. ووصلت إلى القاعة الأرضية أخيرا فرأيت مستطيلا مضيئا بشكل خافت يفضي إلى مدخل شارع "باين" المتهدم. توجهت إلى الجهة المقابلة لأجد الباب الخلفي مفتوحا كذلك فمرقت منه ونزلت خمس درجات حجرية إلى الفناء المرصوف بالحصى النابت بالحشائش.

لم يكن ضوء القمر واصلا إلى هذا المستوى لكني كنت أرى طريقي دون استخدام المصباح. كانت بعض النوافذ ناحية "جلمان هاوس" تضيء بخفوت، وظننت أني سمعت بعض الأصوات المشوشة من هناك. وسرت بتؤدة عابرا الطريق إلى جانب شارع "واشنطن" حتى رأيت العديد من مداخل المباني المفتوحة فاتخذت أقربها ليكون طريقي. كان الرواق الداخلي من المبنى مظلما، وعندما وصلت إلى نهايته بالجهة المقابلة وجدت الباب المفضي للشارع موصدا بإحكام.

وفي سعيي للوصول إلى مبنى آخر التمست طريقي عائدا إلى الفناء، لكننى توقفت فترة قصيرة عندما اقتربت من المدخل.

كان هناك حشد كبير لأشكال مبهمة يتدفق أمام باب "جلمان هاوس" المفتوح- وكانت المصابيح تهتز فى الظلام، بينما تردد أصواتُ نعيقٍ مريعةٍ نداءاتٍ منخفضة فيما بينها، لم تكن إنجليزية بكل تأكيد. تحرك هؤلاء الأشخاص بشكل متردد، فشعرت بالراحة وأنا أرى كيف يجهلون أين ذهبت، وإن أثاروا بي رغم ذلك قشعريرة رعب، فمع أن ملامحهم لم تكن واضحة، كانت طريقة مشيهم المتثاقلة الزاحفة مثيرة للنفور بشكل مقيت، وأسوأهم هو الذي كان يرفل فى رداء غريب ويضع على رأسه تاجًا طويلًا ذي نمط بدا لى بوضوح مألوفًا تمامًا. مع انتشارهم خلال الساحة تزايد شعوري بالخوف. ماذا لو أنني لم أستطع أن أجد مخرجًا من هذا المبنى على جانب الطريق؟ وكانت رائحة السمك مقيتة حتى تساءلت إن كنت سأتحملها دون أن أفقد وعيي. ومرة أخرى تلمست طريقي باتجاه الشارع، ففتحت بابا مطلا على قاعة المبنى ودخلت غرفة فارغة بها نوافذ مغلقة المصاريع

لكنها بلا ستائر. وتعثرت فى ضوء مصباحي، لكني وجدت أن بإمكاني فتح النافذة، فكنت في اللحظة التالية قد قفزت للخارج تاركًا الغرفة مغلقة ورائي على وضعها السابق.

وبلغت الآن شارع "واشنطن" ولم أر أي مخلوق حي ولا أي ضوء باستثناء الضوء الصادر عن القمر. وكنت أسمع رغم ذلك من مختلف الاتجاهات صوتا بعيدا لوقع أقدام غليظ، ونوعا غريبا من الطقطقة التى لم تبد أبدًا كصوت خطوات. لكن لم يكن لدي أي وقت لأهدره. كانت وجهتي واضحة، وشعرت بالسعادة عندما رأيت أنوار الشارع كلها مطفأة، كما في الليالي الريفية التى لا يضيئها بشكل كامل سوى نور القمر. ووصلتني بعض الأصوات من الجنوب، لكني أبقيت على خطتي للهروب في الاتجاه نفسه. أنا واثق أن هناك العديد من مداخل المباني المهجورة التي يمكنني اللجوء إليها إذا ما قابلت أي شخص أو مجموعة يبدو أنها تطاردني.

أسرعت فى سيري بخفة على مقربة من المنازل المتهدمة. وكنت حاسر الرأس أشعثه من أثر المشقة التي عانيتها في التسلق فلم أكن لافتا للأنظار، بل قد أبدو كشخص لا يؤبه

له إذا ما اضطررت لمواجهة عابر عارض.

عند شارع "بيتس" دخلت أحد الأروقة المفتوحة عندما صادفت شخصين يعبران الطريق أمامي بتثاقل، لكنني عدت إلى طريقي سريعا، قاصدا الساحة المفتوحة حيث شارع "إليوت" الذى يتقاطع بزاوية مع شارع "واشنطن" فى المنطقة الجنوبية. وعلى الرغم من أنى لم أر هذه الساحة من قبل، فقد بدت خطيرة وفق خريطة فتى البقالة بما أن ضوء القمر كان يكشفها تماما. لكن لم يكن أمامي سوى اجتياز هذه الساحة، إذ كان أى طريق بديل يتضمن تعريجات ستجعلني مكشوفا وتتسبب فى تعطيلي. لم يكن أمامي سوى قطع الساحة بشكل جريء ومباشر، مقلدا مشية أهل إنزماوث المتثاقلة ما استطعت من الدقة، واثقًا من أن أحدًا -أو على الأقل أحد الذين يطاردونني- لن يكون هناك.

لم تكن لدي أدنى فكرة كيف كانوا يخططون لمطاردتي- ولا لأي غرض في الواقع. بدا لي أن هناك نشاطًا غير معتاد في المدينة، لكنني استنتجت أن نبأ فراري من "جلمان" لم يكن قد انتشر بعد. كان على بالتأكيد أن أنتقل فى أقرب

وقت من "واشنطن" إلى أحد الشوارع الجانبية الأخرى لأن المجموعات التي كانت في الفندق ستأتي بلا شك لملاحقتي. ولابد أني خلّفت آثارًا من الغبار فى المبنى القديم الأخير سيستدلون بها على الطرق التي سلكتها.

كانت الساحة المفتوحة، كما توقعت، مكشوفة بضوء القمر. ورأيت هناك بقايا ما يشبه أن يكون متنزها، تقع فى مركزه بقعة خضراء محاطة بسياج حديدى. لحسن حظي لم يكن هناك أحد على الرغم من وجود نوع غريب من الطنين أو الضجيج الذى بدا أنه يرتفع في اتجاه ميدان المدينة. كان شارع "ساوث" فسيحا للغاية، ويقود مباشرة إلى أسفل منحدر صغير باتجاه الواجهة البحرية التى تشرف بشكل كبير على البحر، فتمنيت ألا يتمكن أحد من رؤيتي من أعلى بينما أسير مكشوفا فى ضوء القمر المنير.

لم يعق تقدمي أي شيء، ولم أسمع أصواتا جديدة يمكنني تمييزها لشخص يتبعني. وألقيت نظرة حولي تاركا إيقاع خطوي يتوانى بشكل لا إرادي لثانية. ألقيت نظرة شاملة على البحر الذى بدا باهر الجمال فى ضوء القمر البراق بنهاية

الشارع. وهناك فيما وراء حواجز المياه كان صف شعاب الشيطان المرجانية معتما كئيبا، لا أستطيع وأنا أنظر إليه أن أتوقف عن التفكير فى كل الأساطير البشعة التى سمعتها فى الأربع وعشرين ساعة الأخيرة عنه- الأساطير التى تصور هذه الصخرة الوعرة كبوابة فعلية تشرف على ممالك من الأهوال التي لا تنقطع والعجائب التي لا تتصور.

بعد ذلك مباشرة، وبدون سابق إنذار، رأيت الومضات المتقطعة للضوء على الشعاب المرجانية البعيدة. كانت واضحة ولا تدع مجالا للشك، وأيقظت فى ذهني أهوالا مظلمة أبعد من أى حد معقول. انقبضت عضلات جسدي من الذعر استعدادا للفرار، لكنني تماسكت بانتباه لا شعوري واضح، وبما يشبه ذهول الافتتان. لكن ما زاد الأمر سوء، هو أن أومضت القبة العالية لمبنى "جلمان هاوس" الآن أمامي مجموعة ومضات متشابهة، ومع ذلك، متميزة، اتجهت شمالا فيما ورائي، ولا يمكن أن تكون سوى إشارات استجابة.

سيطرتُ على عضلاتي وأدركت مؤخرا كيف كنت ظاهرا آنذاك، لكني تابعت نشاطي متظاهرا بالسير الثقيل،

على الرغم من بقاء عيني على الشعاب المرجانية الشيطانية المشؤومة، ما دام شارع ساوث المفتوح يتيح لي رؤية البحر. ولم أكن أستطيع تصور ما كان يعنيه ذلك الفعل إذا لم يكن طقسا غريبًا له صلة بشعاب الشيطان المرجانية أو لم تكن فئة ما قد هبطت من إحدى السفن على الصخرة الملعونة. انعطفتُ الآن إلى اليسار حول الخضرة الخربة، محدقا لا أزال باتجاه المحيط الذى يتلألأ فى ضوء القمر الصيفي الشاحب، أراقب الوميض المبهم لتلك الإشارات غير المفهومة التى لا أستطيع وصفها.

بعد ذلك بقليل كنت أنوء بأفظع انطباع على الإطلاق- الانطباع الذى قضى على آخر قدر لدي من السيطرة على النفس وجعلني أركض بكل عزم تجاه الجنوب متجاوزا المداخل المظلمة المفتوحة والنوافذ التى تحدق بجحوظ في الشارع الكابوسي المهجور. إذ عندما ألقيت نظرة قريبة رأيت أن المياه التى يضيئها ضوء القمر بين الشعاب المرجانية والشاطئ كانت تعج بحشد من الكائنات الحية التى تسبح في تجاه المدينة، وبرغم المسافة الشاسعة فإنه مع لحظة إدراكي

لذلك كان بإمكاني أن أجزم أن الرؤوس المتمايلة والأذرع المتأرجحة كانت غريبة تماما ولها سلوك شاذ لا يكاد يمكن وصفه أو صياغته بشكل واع.

وتوقفت عن ركضي المحموم قبل أن ألجأ إلى أحد المباني، عندما بدأت أسمع على يساري شيئًا يشبه ضجة نشاط منظم. كان هناك قرع خطى وأصوات كلام، وأزيز محرك دائر بالجنوب على امتداد شارع "فيدرال". وفى ثانية تبدلت كل خططي تماما- إذا ما كان الطريق السريع الجنوبي مغلقا أمامي، فلابد أن أجد مخرجا آخر من إنزماوث. توقفت واندفعت إلى أحد المداخل المفتوحة، مدركا كم كنت محظوظا أن أترك الساحة التى يكشفها ضوء القمر قبل أن يهرع إلي كل هؤلاء المتربصين عبر الشارع الموازي.

ولما فكرت ثانية انتهيت إلى نتيجة أقل عزاء، فبما أن المطارادات تدور فى شارع آخر، إذن فهم لا يتبعونني من الواضح بشكل مباشر. كما أنهم لم يروني، بل يتحركون ببساطة وفق خطة عامة لإفشال مخطط هربي بقطع الطرق علي. وهذا يتضمن أن كل الطرق التى تؤدي إلى خارج إنزماوث مراقبة

كهذا الطريق، إذ لم يكن باستطاعتهم أن يعرفوا أي الطرق أنوي أن أتخذها مهربا. إذا كان الأمر كذلك، فسينبغي عليّ أن أجعل تراجعي خلال البلدة بعيدًا عن أي طريق، ولكن كيف يمكنني فعل هذا بالنظر إلى طبيعة المناطق المحيطة التي تملؤها المستنقعات والنهيرات؟ داخ عقلي للحظة- من اليأس المطبق ومن اشتداد رائحة السمك التي انتشرت في كل مكان بشكل مفاجئ.

ثم فكرتُ فى السكة الحديد المهجورة التى تتصل بـ "رولوي"، والتي يفترش أرضيتها حصى نابت بالحشائش، ولا تزال تمتد للخارج باتجاه الشمال من مبنى المحطة المتداعي على شفير ضفة النهير. كانت تلك هي الفرصة الوحيدة التي لن تخطر لأهل المدينة لأن مكان المحطة المهجور يغص بالأشواك مما سيجعل الهرب خلالها أمرا شبه مستحيل ومن المستبعد اختياره. كنت أعرف كيف يبدو هذا الطريق فقد رأيته من قبل من نافذة الفندق. يتضح معظم امتداده فى البداية لطريق "رولوي" وللأماكن العالية فى المدينة نفسها بشكل غير مطمئن، لكن باستطاعة المرء أن يتسلل دون

أن يراه أحد من خلال أشجاره. على كل حال، كانت هذه فرصتي الوحيدة للنجاة، ولم يكن أمامي سوى اقتناصها.

انسحبتُ داخل قاعة مخبأي المهجور، واستعنت بخريطة فتى البقالة على ضوء مصباحي الجيبي. كانت مشكلتي الملحة هي كيفية الوصول إلى محطة القطار القديمة، وأستطيع أن أرى الآن أن أكثر الطرق أمانا كان بالاتجاه رأسا إلى شارع "بابسون"، ثم الاتجاه إلى "لافايت" -بالالتفاف حول الساحة المفتوحة كالساحة التى عبرتها من قبل دون المرور من خلالها- والعودة باتجاه الشمال والغرب بعد ذلك فى خط متعرج خلال شوارع "لافايت" و"بيتس" و"آدم" و"بانك" -حيث يلتف الأخير حول ضفة النهير- إلى المحطة المهجورة والمتهدمة التى رأيتها من نافذة الفندق. كان الداعي للذهاب رأسا إلى بابسون أنني لم أرغب في اجتياز الساحة المفتوحة التي اجتزتها من قبل مرة ثانية، ولا أن أتخذ طريق الغرب وأعبر شارعا واسعا مثل شارع "ساوث".

بادئا من جديد، قطعتُ الطريق إلى الجهة اليمنى بغرض الالتفاف ودخول شارع "بابسون" خلسة قدر الإمكان.

كانت الضجة لا تزال مستمرة في شارع "فيدرال"، وعندما التفت خلفي ظننت أني رأيت شعاع ضوء بالقرب من المبنى الذي هربت من خلاله. وشعرت بالقلق لمغادرتي شارع "واشنطن". فشرعت أهرول آملا أن يمنعني الحظ من مواجهة أي عين راصدة. وعلى المنعطف التالى لشارع "بابسون" انتبهت إلى أن أحد المنازل كان مأهولا كما تدل على ذلك الستائر المسدلة فوق النافذة، لكن لما لم تكن هناك أضواء بالداخل اجتزته ولم تعترضني أي مصيبة.

في شارع بابسون، الذي يتقاطع مع "فيدرال"، وقد يفضح بالتالي وجودي للراصدة، التزمت القرب قدر الإمكان من المباني المنخفضة المتفاوتة، وتوقفت مرتين لدى إحدى المداخل عندما سمعت الضوضاء من خلفي تتزايد لحظة بعد أخرى. وبرزت الساحة المفتوحة أمامي على اتساعها خالية يفترشها ضوء القمر، لكن طريقي لم يكن يضطرني إلى اجتيازها. وخلال توقفي للمرة الثانية، بدأت ألاحظ توزيعا جديدا للأصوات المبهمة، وعندما نظرت بحذر مستترا رأيت سيارة تمرق عبر الساحة المفتوحة

متجهة على طريق شارع "إليوت"، الذي يتقاطع معه، كل من "بيسون" و"لافييت".

وعندما نظرت -مختفياً بانتشار مدخل جانبي أو شجرة تسدل بعد فترة غياب قصيرة- رأيت فريقاً من هيئات زاحفة غير مألوفة يتدفق ويسير بتثاقل في الاتجاه نفسه. عرفت أنه بالتأكيد فريق المراقبة على طريق "إبسويتش" بما أن الطريق السريع يعد امتداداً لشارع "إليوت" وكان اثنان من تلك الكائنات يرفلان في أردية مصبغة، بينما يضع واحد منهم تاجاً يتلألأ بالبياض في ضوء القمر، وكانت لهم طريقة غريبة في المشي للحد الذي يثير القشعريرة- بدا لي أن تلك الكائنات تتواثب تقريباً.

وعندما غاب آخر أعضاء تلك الفرقة عن النظر تابعت تقدمي مارقًا عبر الأركان باتجاه شارع "لافايت" ومجتازًا "إليوت" بسرعة خاطفة خشية أن تكون زمرة المتجولين لا تزال تتقدم خلال الشارع. وكنت أسمع أصوات نعيق وجلبة آتية من بعيد من ناحية ميدان المدينة، لكنني مررت دون وقوع أي نكبة، وكان خوفي الأعظم يتعلق باجتياز شارع

"ساوث" الواسع المطل على البحر والذي يكشفه ضوء القمر من جديد، لكن عليّ أن أجترئ لاجتياز هذه المحنة. قد يراني هناك أحد بسهولة، ومن المحتمل أن المتجولين في شارع "إليوت" لن يفشلوا في تمييزي بالحالتين. وقررت في آخر لحظة أن أبطئ حركتي وأجعل عبوري كما كان من قبل في خطى متثاقلة بمعدل سير مواطني إنزماوث.

عندما ظهرت الواجهة البحرية مرة أخرى - على يميني هذه المرة- كنت شبه عازم على عدم النظر إليها. لكنني لم أتمكن من مقاومة الفضول، فألقيت نظرة جانبية بينما أقلد بحذر مشيتهم المتثاقلة وأنا أتجه إلى حِمَى الظلال. وتوقعت أن أرى سفينة ما لكنني لم أر أي سفينة. جذب انتباهي على الفور بدلا من ذلك قارب تجديف صغير مسحوب إلى رصيف الميناء المهجور ومحمل بشيء ضخم تغطيه قطعة من المشمع. بدا مجذافيه منفران بشكل خاص، رغم بعد المسافة وعدم وضوحهما. ولم تكن رؤية السابحين بوضوح ممكنة حتى الآن، لكن أمكنني أن أرى على الشعاب المرجانية البعيدة التماعا ثابتا مختلف عن الإشارات الخاطفة التى

رأيتها من قبل، كان له لون لم أستطع تحديده بدقة. بدت قبة "جلمان هاوس"، التي كانت أعلى من الأسطح المنحدرة أمامي وعلى يميني، غائمة، بل معتمة تماما. وتبددت رائحة السمك للحظة أمام نسمة هواء رحيمة، لكنها عادت لتطبق مرة ثانية بكثافة تثير الجنون.

لم أكن قد عبرت الطريق تماما عندما سمعت تمتمة الفرقة وهي تتقدم على شارع واشنطن من جهة الشمال. وبوصولهم الساحة المفتوحة الواسعة، حيث ألقيت نظرتي القلقة الأولى على المياه التي تشربت ضوء القمر، أمكنني أن أراهم بوضوح على بعد مبنى واحد مني- كنت مروعا من الغرابة الوحشية لملامح وجوههم وطريقة مشيهم الزاحفة التي تعود لمراتب دون مرتبة البشر، كالكلاب. أحدهم كان يتحرك على طريقة القرود تمامًا، كانت ذراعاه الطويلتان تلمسان الأرض بشكل متكرر، بينما تقدم واحد آخر -مرتديا عباءة ويضع تاجا- في نمط وثاب. استنتجت أن هذه الفرقة هي التي رأيتها من قبل في فناء جلمان- وكان أحدهم أقرب ما يكون في أثري. عندما استدار شخص منهم ونظر باتجاهي تجمدتُ من

الرعب، لكننى أبقيت على مشية التثاقل المعتادة التى أتظاهر بها. ولست أدري حتى هذا اليوم هل رأوني يومها أم لا، فلو أنهم رأوني لكان هذا يعني أن حيلتي قد انطوت عليهم تمامًا بلا شك، فتجاوزوني عابرين الحيز الذى يضيئه القمر دون أن يغيروا مسارهم- بينما ينعقون ويغمغمون بلهجة كلامية محلية لا أستطيع تمييزها.

تابعت مرة أخرى هرولتي في الظلال، مجتازا المنازل المائلة والمتداعية التي تحدق في الليل بجمود. وعبرت إلى الرصيف الغربى، واتخذت أقرب منعطف إلى شارع "بايتس"، حيث التزمت القرب من المباني على الجهة الجنوبية. تخطيت منزلين بدا من مظهرهما أنهما مأهولين، أحدهما كانت تضيء غرفة العليا أضواء خافتة، لكن لم يعقني شيء. اتخذت بعد ذلك منعطفا آمنا إلى حد بعيد نحو شارع "آدمز"، لكنني صُعقت عندما ترنح أمامي مباشرة من إحدى المنافذ المعتمة رجل. وتبين رغم ذلك أنه كان ثملا للحد الذى لا يجعله يمثل أي تهديد، وهكذا وصلت إلى أنقاض المستودع الكئيبة فى شارع "بانك" بأمان.

لم يكن أحد يتحرك في ذلك الشارع الميت على ضفة النهير، كما أن خرير مصبات المياه كان يغطي تماما على صوت خطاي. طالت هرولتي إلى المحطة المتهدمة، وبدت حجارة جدران المستودع العظيمة بشكل ما أكثر إثارة للرعب من واجهات المنازل المهجورة. رأيت أخيرا المحطة العتيقة ذات الرواق المقنطر -أو ما تبقى منها- واتخذت طريقى مباشرة إلى الدروب التى تبدأ من طرف المحطة البعيد.

كانت خطوط السكة الحديد صدأة لكن جوهرها سليم، ولم يكن أكثر من نصف العوارض فاسدا. كان السير أو الركض على مثل هذا المسار بالغ الصعوبة لكنني بذلت قصارى جهدي وقمت بقطع قدر كبير من المسافة فى وقت معقول. وإلى حد ما استمر المسار محاذيًا لامتداد ضفة النهير، لكني وصلت بعد ذلك إلى جسر طويل مغطى، يعبر هاوية ذات ارتفاع مدوِّخ. وكانت حالة الجسر ستحدد خطوتي التالية. فإذا كان اجتيازه ممكنا بالنسبة لقدراتي البشرية فسأستخدمه، وإن لم يكن فسأخاطر بالتجول فى شوارع أخرى لأعبر أقرب جسر سليم.

كان الامتداد الكبير والقذر لهذا الجسر القديم يلتمع بشحوب فى ضوء القمر، ورأيت أن العوارض آمنة على الأقل حتى خطوات قليلة داخله. أوقدت مصباحي، عندما خطوت فيه، فكادت سحابة من الخفافيش المرفرفة فوقى أن تقذف بي من فوقه. وقرب منتصف الجسر صادفت فجوة مفزعة بين العوارض خشيت السقوط فيها للحظة، لكنني خاطرت فى النهاية يائسا وقفزت بنجاح لحسن الحظ.

كنت سعيدا لرؤية ضوء القمر ثانية عندما خرجت من ذلك النفق الرهيب. كانت الدروب القديمة تقطع شارع "ريفر" فى انحدارها ثم تنحرف فجأة إلى منطقة أكثر ريفية تقل فيها شيئًا فشيئا رائحة الأسماك المنفرة التي تملأ إنزماوث. أعاقنى نمو الحشائش والأشواك الكثيف ومزق ملابسي بوحشية، لكني شعرت رغم ذلك بالسرور لوجودها هناك سترا من الخطر، لأنني كنت أعرف أن معظم الطريق مكشوف بلا شك لشارع "رولوى".

بدأت رقع المستنقعات تظهر بشكل مباغت، ولم يكن هناك سوى طريق وحيد عبر جسر معشب منخفض تنمو

عليه الحشائش إلى حد ما بشكل أرق سمكا، ثم ظهرت أنواع من الجزر فى مستوى مرتفع من الأرض فيتخذ الطريق ممرا مختصرا وضحلا يضيق بأكمة شجيرات وأشواك. كنت سعيدا بهذا الملجأ المؤقت، بعدما كان طريق رولي عند هذه النقطة قريبا بشكل مقلق وفق المشهد الذي رأيته من نافذة الفندق. وكنت سأعبر الطريق عند نهاية الممر المختصر وأنحرف إلى مسافة أكثر أمانا، مراعيا غاية الحذر في ذلك. كنت عندئذ على يقين أن السكة الحديد نفسها لم تكن مراقبة لحسن حظي.

وألقيت نظرة خلفي قبيل الدخول إلى هذا المختصر لكن لم أر شخصًا يتبعني. كانت القمم والأسطح العتيقة لإنزماوث الفاسدة تلتمع بشكل فاتن سماوي فى ضوء القمر السحري الأصفر، وفكرت فيما -يا تُرى- كانت تبدو عليه قبل إطباق هذا الظلام عليها. وعندما ارتدت نظرتي عن المدينة، أسر انتباهي شيءٌ أقلُّ صفاء وأصابني بالشلل لثانية.

ما رأيته -أو ما تخيلت أنني رأيته- كان شيئًا مزعجا يوحي بحركة متماوجة بعيدا ناحية الشمال، الإيحاء الذى استنتجت

منه أن حشدا كبيرا كان يتدفق بلا شك خارجا من المدينة بطول الطريق إلى إيبسويتش. كانت المسافة عظيمة ولم أتمكن من تمييز شيء بالتفصيل، لكنني لم أتقبّل أبدا منظر ذلك الطابور المتحرك الذي كان يتماوج بشدة ويلتمع بسطوع فى أشعة القمر الذي كان يجنح للغروب. كان هناك إيحاء صوتي كذلك رغم الاتجاه المعاكس للريح- إيحاء باكتساح بربريّ مدوّ، أسوأ من دمدمة فرق المطاردة التى كنت أسمعها قبل قليل.

مرت بذهنى كل أنواع الظنون المعذِّبة. فكرت فى تلك الأنواع التى قيل أنها تختبئ فى أراض متداعية لقرون قرب الواجهة البحرية فى إنزماوث؛ فكرت كذلك فى تلك الكائنات السابحة التى لا اسم لها والتى كنت قد رأيتها. وعندما فكرت في عد المجموعات التى رأيتها حتى الآن، وتلك التي أفترض أنها تغطي الطرق الأخرى، وجدت أني سأصل فى العد إلى أرقام كبيرة بشكل عجيب بالنسبة لمدينة خالية كإنزماوث.

من أي الأماكن كان يمكن لمجموعة حاشدة كهذا الطابور الذى أراه الآن أن تخرج؟ أهي تلك الأراضي العتيقة

التى لم تستكشف تماما حتى الآن، تُنتج نمط حياة معقد لم يعرفه أحد ولا خطر على قلب بشر من قبل؟ أم أن سفينة لم يرها أحد هي التي أنزلت جيشا من الأجانب المجهولين على الشعاب المرجانية الشيطانية؟ من كان هؤلاء؟ ولماذا كانوا هنا؟ وإذا كان مثل هذا الطابور يجوب طريق إيبسويتش، فهل يكون الحرس على الطرق الأخرى بمثل هذه الضخامة؟

اقتحمتُ الطريق المختصرة التي تلتف فيها الأغصان وكنت أجاهد بإيقاع خطو شديد البطء عندما غدت رائحة السمك اللعينة مهيمنة مرة أخرى. هل غيرت الريح فجأة اتجاهها للشرق فهبت على المدينة من جهة البحر؟ لابد أنها تغيرت، كما استنتجتُ، فبدأت أسمع الآن دمدمة صاعقة آتية من ذلك الاتجاه الذي كان صامتا. وكان هناك صوت آخر كذلك- نوع من الخفق أو الخبط الجماعي الضخم الذى يستدعي بشكل ما أبغض الصور، ويجعلني أفكر بدون منطق فى الطابور المتموج على طريق إيبسويتش البعيد تماما.

تصاعدت بعد ذلك الأصوات والرائحة المنتنة حتى وقفت أرتعد وكلي امتنان لشجر الشوك التي أحتمي بها.

هنا، حسب ما أتذكر، يقترب طريق رولى من السكة الحديد القديمة قبل أن يتقاطعا فى الناحية الغربية ويفترقا. بدا أن شيئًا ما كان قادما من خلال هذا الطريق، وكان على أن أستلقي على الأرض حتى يتجاوزني ويغيب بعيدا. حمدت السماء أن هذه المخلوقات لم تكن تستخدم الكلاب فى مطاردتها- رغم ذلك ربما كان استخدامها مستحيلا في رائحة كالتي تسود الآن المكان. أشعرني بقائي منحفضا بين شجيرات تلك الشقوق الرملية بقدر معقول من الأمان، حتى عندما عرفت أن المترصدين قد يعبرون الطريق أمامي على بُعد لا يزيد عن مئة ياردة. كان باستطاعتي أن أراهم ولم يكن باستطاعتهم أن يروني، إلا إذا نزل بي عقاب إلهي مُعجز.

وصرت فجأة أخشى أن أنظر إليهم إذ يمرون. كنت أبصر الحيز القريب الذى يضيئه القمر وسوف يتدفقون من خلاله، ولدى أفكار غريبة حول الدنس الذى لا ينتهي في هذا المكان. ربما كانوا أسوأ نماذج إنزماوث كلها- شيء لن يتعمد المرء أبدا تذكره.

طغت الرائحة النتنة وتزايد الضجيج الوحشي من النعيق والنباح والعواء بدون أدنى إيحاء أنه ينطوي على شيء من

كلام البشر. هل كانت تلك الأصوات فعلا أصوات الذين طاردونني؟ هل كانت معهم كلاب أصلا؟ فحتى الآن لم أكن رأيت أيا من الحيوانات الأدنى مرتبة فى إنزماوث. وصار هذا الخفق والخبط وحشيا- فلم أستطع النظر إلى تلك المخلوقات الفاسدة التي تصدره. كان عليّ إبقاء عينيّ مغلقتين حتى يتلاشى الصوتُ باتجاه الغرب. واقترب الحشد للغاية الآن- وكانت زمجرتهم المتحشرجة تلوّث الهواء وبهز إيقاعُ أقدامهم الغريب الأرض، فكادت أنفاسي أن تزهق وبذلت عزمي كله في سبيل إبقاء جفوني مغلقة.

أنا لا أرغب حتى الآن في البت إذا ما كانت الأمور التالية واقعًا بشعًا أم مجرد هلوسة كابوس. لكن التحرك الأخير الذي سيأتي من جهة الحكومة، بعد استغاثاتي المحمومة يؤكد الحقيقة الوحشية. ولكن ألا يمكن ألا تكون كذلك سوى هلوسة تم تكرارها تحت تعويذة شبه منومة بالمدينة القديمة المسكونة المظلمة؟ فلمثل هذه الأماكن خصائص غريبة وتركات من الأساطير اللامعقولة قد تؤثر على خيال الكثيرين في تلك الشوارع الميتة الملعونة كريهة الرائحة، وبين

أكداس الأسطح المتعفنة والأبراج المتداعية فيها. أليس ممكنا أن تكون هناك بالفعل جرثومة جنون مطبق معدٍ كامنة فى طيات ذلك الظلام المخيم على إنزماوث؟ من ذا الذي يمكنه البت بيقين في أمر أي واقعة بعد أن يستمع إلى أشياء من قبيل ما قصه عليّ ذلك العجوز زادوك ألين؟ لم يجد رجال الحكومة مطلقا زادوك المسكين، وليست لديهم أدنى فكرة عما جرى له. أين ينتهي الجنون وتبدأ الحقيقة في كل هذا؟ وهل من الممكن أن يكون آخر ما شهدته من مخاوفٍ مجرد وهم؟

لكن عليّ أن أحاول حكاية ما أظن أني رأيته فى تلك الليلة تحت القمر الأصفر الهازئ- فقد كان التدفق والوثب باتجاه طريق "رولي" واضحا لعيني وأنا ممدد بين تلك الأشجار البرية ذات الأشواك فى طريق السكة الحديد المهجورة، بعدما باء قرار إبقاء عيني مغلقة بالفشل. كان مقضيّ عليّ بذلك الفشل لا محالة- من ذا الذي يستطيع أن يبقى مستلقيا يتعامى، بينما تمر، بالكاد على بعد مائة ياردة منه، كائنات ناعقة نابحة من أصل مجهول وهي تخفق بصورة تثير الاشمئزاز؟

كنت أظن أني تهيأت تماما للأسوأ، وكان جديرًا بي فى الواقع

أن أكون بالفعل قد تهيأت لذلك باعتبار ما رأيته من قبل.

كان الآخرون الذين يلاحقونني من الغرابة على درجة بغيضة. فهل كان على ألا أكون مستعدا لمواجهة المزيد من عامل الغرابة هذا، لأنظر إلى تلك الأشكال التى لم تكن تشابه أي شيء طبيعي هذه المرة على الإطلاق؟ فلم أفتح عيني حتى وصلني الضجيج الأجش عاليا من نقطة أمامي مباشرة، وعرفت أن قسمًا كبيرًا منهم يمكن رؤيته بوضوح من جوانب الطريق الممهد المتقاطع مع الدرب- فلم أكن أستطيع لأكثر من ذلك منع نفسي من معاينة الرعب الذى قد تكشفه لي نظرات القمر الأصفر الشزراء أيا كانت درجته.

تلك كانت نهاية كل أثر عندي للسلامة العقلية أو الثقة فى سلامة الطبيعة والعقل الإنساني أيا كانت الفترة المتبقية لي من الحياة على سطح هذه الأرض. لم يكن أي شيء يمكنني تخيله على الإطلاق -أي شيء، حتى ما تمكنت من جمعه والإيمان به من حكاية زادوك العجوز المجنونة إيمانا حرفيا بالغا- ليُقارَن على أي حال بالواقع الشيطاني اللعين الذي رأيته- أو أعتقد أني رأيته. لقد كنت أحاول بمشقة أن ألمح إلى ما رأيته حتى أؤجل

الرعب الذي سينشأ عن كتابته. هل كان بإمكان الكوكب أن يُخرج مثل هذه الأشياء، لقد رأيت العيون البشرية بالفعل، كجزء من نسيج اللحم، ما كان لا يلقاه المرء حتى الأن إلا فى خياله المحموم أو في الأساطير الواهية؟

كان بإمكاني أن أراهم فى تيار لا ينقطع -يخفق ويحجل وينعق ويغمغم- مندفعين بشكل لا إنساني عبر ضوء القمر الشاحب في كابوس غريب خبيث مليء بالشر. يضع بعضهم التيجان الطويلة من ذلك المعدن الذهبى البراق... ويرتدي بعضهم عباءة غريبة الشكل... ويرتدي أحدهم، ذلك الذى كان يتقدمهم، معطفا مسنما سابغًا ذي لون أسود مقيت وسروالًا مقلمًا، ويضع قبعة من اللباد على شيء لا شكل له يُجاب عنه بكلمة "رأس".

وإنما أظن أن اللون الذي كان يغلب عليهم هو الأخضر الرمادي، مع أن لهم بطون بيضاء. كانوا لامعين في الغالب وذوي ملمس زلق وبنية ظهورهم حرشفية. وهيآتهم توحي بشبهٍ تام الغموض بالبشر، غير أن رؤوسهم رؤوس أسماك جاحظة العيون بشكل استثنائي لا يمكن معه إغماضها.

الخياشيم على جانبي رقابهم كانت تخفق، أما أكفهم الطويلة فكانت تتصل أصابعها فيما بينها بنسيج. ظلوا يحجلون بشكل غير منتظم على قدمين بعض الوقت، وأحيانا على أربع. كنت بدرجة ما مسرورا لأنهم لا يملكون أكثر من أربعة أوصال. أصواتهم الناعقة النابحة كانت بوضوح نوعا من كلام البحارة غير المفهوم، الذي يحمل كل ظلال التعبيرات التى تفتقر إليها وجوهُهم الجاحظة.

لكنهم مع كل هذه الوحشية لم يكونوا غريبين تماما إليّ. وعرفت حق المعرفة ما كانوا. أولم تكن ذكرى التاج اللعين فى نيوبيريبورت حديثة لا تزال؟ لقد كانت لهم هيئة الأسماك- الضفادع الملعونة التى لا يمكن تسميتها -المفعمة بالحياة والكراهة إلى أقصى حد- وعرفت عندما رأيتهم أي ذكرى كان يثيرها في نفسي الكاهن المحدودب المتوج في قبو الكنيسة المظلم. كانت أعدادهم تفوق التخمين وبدا لى أن هناك حشد لا نهاية له منهم، ولم تكن نظرتي بكل تأكيد لتدرك من أعدادهم رغم ذلك سوى قطاع صغير. ثم انتهى كل شيء بإغفاءة مواتية رحيمة، هي الأولى حتى الآن على الإطلاق.

(٥)

أيقظني مطر النهار اللطيف من غيبوبتي فى طريق السكة الحديد الذي يغص بالأشجار، وعندما ترنحت خارجًا إلى السكة الحديد لم أر أي أثر أمامي لأي علامات على الطين الذي تكوّن حديثا. كانت رائحة الأسماك أيضا قد اختفت بينما لاحت أسطح إنزماوث المتهدمة وأبراجها المنهارة بلون رمادى جهة الجنوب الشرقي، لكن لم أر أي كائن حي في تلك المستنقعات الملحية المهجورة حولي. وكانت ساعتي لا تزال تعمل، فعرفت منها أن الوقت قد تجاوز الظهيرة.

كان عقلي يتشكك تماما بحقيقة ما مررت به، ولكني كنت أشعر بشيء شنيع يقبع وراء الأمر. كان على أن أفر

من إنزماوث الملعونة المظلمة- وهكذا بدأت أختبر قواي المتشنجة والمرهقة في الحركة. وبالرغم من الضعف والجوع والرعب والارتباك وجدت نفسي قادرًا على المشى بعد وهلة، فبدأت أسير ببطء طوال الطريق الموحل إلى رولي. وقبل المساء كنت أتناول في إحدى القرى وجبةً وأرتدي ملابس صالحة. واتخذت قطار الليل إلى أركم، وتحدثت فى اليوم التالي كثيرا وبجدية شديدة مع موظفي الحكومة هناك، وهو ما قمت به ثانية بعد ذلك في بوسطن. فجاءت نتيجة تلك المحادثات بالأحداث التي صارت معروفة للعامة الآن- وتمنيت، سعيا لبلوغ حالة سوية، لو لم يكن هناك شيء آخر لأتحدث عنه. وربما تغلّب عليّ الجنون، ربما رعبٌ أكبر من هذا -أو عجب أهول- سوف يجيء.

وكما هو متوقع، تخليت عما تبقى من خطة رحلتي- التي كنت أتوق فيها لتتبع تغيرات المشاهد والعمارة والآثار. ولم أجرؤ أن ألقي نظرة على تلك القطع الغريبة من الحلي التى قيل أنها موجودة فى متحف جامعة ميسكاتونيك. لكني أمضيت فترة إقامتي فى أركم أجمع ملاحظات تتعلق بنسبي

كما تمنيت طويلًا، صحيح أنها كانت بيانات غير منظمة ومكتوبة على عجل، لكنها كانت كذلك مناسبة ويمكن الاستفادة منها في وقت لاحق عندما تتاح لى فرصة جمعها وتدوينها. أبدى أمين الجمعية التاريخية هناك -مستر ب. لافام بيبادي- غاية اللطف في مساعدتي وأولاني اهتماما غير عادي عندما أخبرته أني حفيد إليزا أورن من أركم، المولودة في ١٨٦٧ والتي تزوجت جيمس وليامسون من أوهيو فى سن السابعة عشرة.

تبين لي أن أحد أخوالي جاء إلى هذا المكان منذ عدة سنوات متسائلًا مثلي، وأن عائلة جدتي كانت موضوعا لنوع من الفضول المحلي. قال مستر بيبادي أن مناقشة مهمة كانت تدور هناك حول زواج والدها بنجامين أورن قبل الحرب الأهلية مباشرة، لأن سلالة العروس كانت محيرة بشكل فريد. وما فهمته هو أن العروس كانت يتيمة تنتسب لعائلة مارش فى نيوهامبشاير -أبناء عمومة عائلة مارش فى مقاطعة إيسيكس- لكنها تلقت تعليمها في فرنسا ولم تكن تعلم سوى أقل القليل عن عائلته؛ إذ أودع وصيُّها أموالا في بنك

بوسطن وجعلها تحت تصرفها وتصرف راعيتها الفرنسية، لكن اسم هذا الوصي كان غريبا على أهل أركم، كما أنه اختفى ذات يوم عن الأنظار وحلت راعيتها محله بصفة رسمية بحكم قضائي. كانت المرأة الفرنسية -التي ماتت منذ زمن بعيد- متكتمة للغاية، ويقال أنها كانت تكن أكثر مما أفضت به فعلا.

كانت أكثر الأشياء المحيرة رغم ذلك، أن أحدا لم يكن بإمكانه أن يحدد مكان والدي المرأة الصغيرة المقيدين في الدفاتر -إينوتش وليديا (ميسيرف) مارش- بين العائلات المشهورة فى نيوهامبشاير. ربما كانت، كما اقتُرِحَ كثيرا، الابنة الطبيعية لأحد آل مارش المشهورين- إذ كانت لها بالتأكيد عيني عائلة مارش المميزة. أما أكثر الأشياء الملغزة فقد بدأت مع وفاتها المبكرة، التي أصابتها لدى ولادتها جدتي- ابنتها الوحيدة. أثارت تلك الملاحظات بعض الانطباعات الكريهة المرتبطة لدي باسم مارش، لم أرحب أبدا بتلك الأخبار التى تخص شجرة عائلتي، ولم يسرني اقتراح مستر بيبادي أن لي عيني مارش المميزتين ذاتهما. لكنني كنت ممتنا

له. رغم ذلك، بخصوص البيانات التي عرفت أن أهميتها ستتضح بعد ذلك، كما أنني أخذت ملاحظات غزيرة وقائمة مراجع موثقة بإتقان تتعلق بعائلة أورن.

اتجهت بعد ذلك مباشرة من بوسطن إلى منزلي فى توريدو، وقضيت شهرا في ماوومي أتعافى من العذاب الذى عشته. وفى سبتمبر ذهبت إلى أوبرلين لقضاء عامي الأخير، ومن ذلك الوقت حتى يونيو التالي كنت مشغولا بالدراسة وأنشطة أخرى صحية- فلم تراودني ذكرى الأهوال التي عشتها إلا مع الزيارات الرسمية العرضية لرجال الحكومة فيما يتصل بالحملة التى بدأتها ادعاءاتي وحججي. وقرب منتصف يوليو -أي بعد مرور عام كامل على ما حدث لي بإنزماوث- قضيت أسبوعا مع عائلة أمي المتوفاة في كليفلاند، فاحصا بعض بيانات الأنساب الجديدة ومادة الملاحظات والمأثورات وبعض الأملاك الأخرى الموروثة الموجودة هناك، لأرى تكوين خريطة أنساب متصلة.

وبسبب جو منزل وليامسون لم أستسغ أبدا تلك المهمة، فقد كان يصيبني دائما بالقلق. كانت هذه السلالة تعاني من

علة ما. لم تكن أمي تشجع أبدا زياراتي لأبويها عندما كنت صغيرا، على الرغم من أنها كانت دائمة الترحاب بوالدها كلما جاءنا للزيارة في تورنيدو. أما جدتي المولودة في أركم فكانت غريبة ومروعة تقريبا بالنسبة لي، ولا أعتقد أني شعرت بالحزن عندما اختفت. كان عمري آنذاك ثمانية أعوام عندما قيل لي أنها كانت تهيم في أسى بعد انتحار خالي دوجلاس. ابنها الأكبر الذي أردى نفسه بعد رحلة إلى نيو إنجلاند- الرحلة نفسها، بلا شك، التي ذكرتها جمعية أركم التاريخية.

كان خالي هذا يشبهها فلم أكن أحبه هو الآخر. شيء ما في تعابير وجوههم المحدقة التي لا ترمش- كانت تثير بي شعورا غير مريح ولا مفهوم. لم يكن لأمي ولا لخالي والتر مظهرهما ذلك. كانوا يشبهون أبي، على الرغم من أن ابن خالي الصغير المسكين لورنس -ابن والتر- كان تقريبا نسخة طبق الأصل من جدته، قبل أن تتسبب حالته فى عزله للأبد بمصحة كامبتون. كان خالي يشير إلى أن حالته العقلية والجسدية، ولم أكن رأيته منذ أربع سنوات، في غاية التدهور. وربما تسبب هذا القلق بشكل أساسي في موت أمه قبل ذلك بعامين.

كان جدي وابنه الأرمل والتر يعيشان الآن مع أسرة كليفلاند، إلا أن ذكريات الأيام الخوالي كانت تحوم فوقهما بكل كثافتها. لا زلت أبغض المكان، وأحاول أن انتهى من أبحاثي في أسرع ما يمكن. أوراق وليامسون والمأثورات التى أمدني بها جدي كانت وفيرة، وكان على أن أعتمد على خالي والتر فيما يتعلق بأورن، فوضع تحت تصرفي محتوى جميع الملفات التي لديه، بما فى ذلك الملاحظات والخطابات وقصاصات الورق والممتلكات المتوارثة والصور والتحف الصغيرة.

فرحت أتفحص الرسائل والصور التى تخص عائلة أورن وعندها بدأ ينتابني نوع من الذعر تجاه أسلافي. كانت جدتي وخالي دوجلاس، كما قلت من قبل، يشعراني على نحو دائم بعدم الارتياح. وها أنا ذا الآن، بعد سنوات من وفاتهم، أقف محدقًا فى وجوههم المصورة وملأ نفسي شعور ملموس ومتزايد بالنفور والاشمئزاز. لم أكن في البداية أستطيع تمييز التغير، لكنه بدأ يفرض نفسه عليّ تدريجيًا، فى نوع من المقارنة المريعة، بشكل لا واع، رغم رفض وعيي الحاسم أن يقر حتى بأقل الشكوك حول ما كنت أراه. كان واضحًا أن تعبير

وجوههم المتطابق يوحي الآن بشيء لم يكن يوحي به من قبل- شيء ما كان يجلب عليّ الفزع بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، لو أنني فكرت في مدلوله برحابة أكبر.

لكن صدمتي الأسوأ وقعت عندما أطلعني خالي على مجوهرات أورن فى خزانة القبو الحصينة. بعض القطع كانت مرهفة وملهمة بشكل تام، وهناك كان ذلك الصندوق الذي يعود إلى أم جدتي ذات السيرة الغامضة ويضم قطعا قديمة وغريبة يرفض خالي إخراجها. كانت، كما قال، ذات تصاميم غريبة ومنفرة في معظمها، لم يكن أحد يرتديها على حد علمه في أي اجتماعات عامة، على الرغم من أن جدتي اعتادت أن تستمتع بالنظر إليها. كما كانت تلتصق بهذه القطع أساطير غير مفهومة عن حظ سيء، ولم يكن ينبغي، كما قالت راعية أم جدتي الفرنسية، أن تُرتدى هذه القطع في نيو إنجلاند، وإن كان من الآمن تماما أن ترتدى في أوروبا.

وعندما بدأ خالي يخرج ببطء وعلى مضض تلك الأشياء ذات التصاميم الغريبة والبشاعة المتكررة، حذرني أن تصيبني من رؤيتها صدمة. صحيح أن الفنانين والمعماريين كانوا

يشيدون تماما بصنعتها الفائقة وتهذيبها الفاتن والاستثنائي، لكن لم يكن باستطاعة أحد منهم أن يدرجها ضمن أي تقليد فني معين. كانت القطع عبارة عن سوارين وتاج ونوع من القلائد، وكانت على هذه القطع الأخيرة أشكال رفيعة، لأشخاص بعينهم، منقوشة في غلو لا يحتمل.

كنت أراعي أثناء هذا الوصف كبح انفعالاتي، لكن وجهي كان يشي بمخاوفي المتنامية. وكان خالي قلقا فتوقف عن استعراض القطع ليتأمل ملامحي. أشرت إليه ليتابع، فتابع بعدما أبدى لي لفتات امتعاضه. وبدا أنه يستعد لنوع من الشرح عندما ظهرت القطعة الأولى -التاج- لكن أشك أنه كان يتوقع ما حدث وقتها فعلا. لم أكن أتوقع ذلك عن نفسي أيضا، بل كنت أعتقد أنني محصن تماما من أي انفعالات تجاه ما قد أراه من تلك الحلي. لكن ما كان مني حينها، إلا أن فقدت الوعي فى صمت، كما حدث معي تماما على طريق السكة الحديد الذي كان يغص بالأشواك قبل ذلك بعام.

منذ ذلك اليوم صارت حياتي كابوسا من الكآبة والقلق، لا أعلم ما فيها من مقدار الحقيقة البشعة ولا من مقدار

الجنون. كانت أم جدتي من عائلة مارش من أصل غير معروف وزوجها يعيش فى أركم- ألم يقل العجوز زادوك أن ابنة أوبيد مارش من زوجته الوحشية تزوجت رجلا من أركم عن طريق الاحتيال؟ ما الذي ذكره السكير الهرم حول صلة عيني بالقبطان وهو يتمتم؟ فى أركم، أخبرني الأمين كذلك أن لي عيني مارش المميزتين. هل كان أوبيد مارش جد جدودي؟ من -أو ماذا- إذن، كانت جدة جداتي؟ لكن ربما كان كل هذا جنون. ربما اشترى والد جدة جداتي، أيا كان من هو، تلك الحلي الذهبية ذات البريق الأبيض من أحد بحارة إنزماوث. وربما كانت هيئة جدتي ذات العيون المحدقة وانتحار خالي محض خيال من جانبي- محض خيال، يقويه ظلام إنزماوث الذى أعتم مخيلتي للأبد. لكن لماذا قتل خالي نفسه بعد السؤال عن أسلافه فى نيو إنجلاند؟

ظللت أقاوم لأكثر من سنتين هذه الأفكار حتى نجحت جزئيًا. بعدها دبر لي والدي مكانا بمكتب التأمينات، فدفنت نفسي في روتينه عميقا قدر ما استطعت. رغم ذلك بدأت الأحلام، فى شتاء ١٩٣٠-١٩٣١، تراودني. تراودني فى

البداية على فترات متباعدة تماما، لكنها تزداد بشكل متكرر ونشط بمرور الأسابيع. تنفتح المساحات المائية أمامي، فأرى نفسي أهيم في أروقة عظيمة مغمورة بالمياه، خلال متاهات من جدران شهيقة معشبة تعلوها نقوش أسماك غريبة تشبه رفقتي في الحلم. ثم تبدأ أشكال أخرى في الظهور، تملأني في اللحظة التي أستيقظ فيها برعب لا يوصف، وإن لم أكن مروعا على الإطلاق خلال الأحلام. كنت واحدا من تلك الكائنات، أرتدي زينتها غير البشرية وأجول بأسلوبها المائي وأضرع بوحشية في معابدها الشيطانية بقاع البحر.

كانت تدور بالأحلام أمور أكثر مما يمكنني تذكره، لكن حتى القليل الذي كنت أتذكره في الصباح، كان يكفي لرميي بنعوت الجنون أو العبقرية لو أني جرأت ودوّنتها. كان بعض الانفعال المرعب الذي ينتابني يسعى تدريجيا لإقناعي بالخروج من العالم المعقول للحياة بأكملها إلى هاوية لا توصف من ظلمة لا مثيل لها، بينما تُملَى طريقة إتمام الأمر عليّ بتثاقل. صارت كل من صحتي وهيئتي تزدادان سوء يوما بعد يوم، حتى صرت في النهاية مجبرا على التخلي عن موقفي

واتخاذ نمط حياة ثابت ومنعزل لشخص مريض. ثم أحكمت بعض الأمراض العصبية الشاذة قبضتها عليّ، فوجدت نفسي في أوقات كثيرة غير قادر تقريبا على إغلاق عينيّ.

بدأت بعد ذلك أتأمل نفسي في المرآة برعب متنام. لا لأن رؤية آثار المرض البطيئة تعتبر أمرا سارا أبدا، بل لأن السبيب فيما يحدث لي كان شيئًا دقيقا ومحيرا للغاية. وبدأ والدي يلاحظ هذا التغير كذلك، فصار يرميني بنظرات الارتياب وغالبا الذعر. ما الذى كان يحل بى؟ أيعني هذا أني سأشبه جدتي والخال دوجلاس في النهاية؟

وفي إحدي الليالي روادني حلم مفزع قابلت فيه جدتي تحت الماء. كانت تعيش في مكان فسفوري محاط بدرجات كثيرة وحدائق من الشعاب المرجانية المنفرة والأفنان المزهرة بالبشاعة، رحبت بي بدفء ربما كان ينطوي على شيء من السخرية. كانت قد تحولت -مثل هؤلاء الذين يتحولون عندما يساقون إلى الماء- وأخبرتني أنها لم تمت، بل ذهبت إلى المكان الذي علمت أن ابنها مات فيه وقفزت إلى مملكة من العجائب، التي كان سيذهب إليها أيضا لولا أنه أنهى الأمر

برصاصة حارقة. كانت تلك مملكتي كذلك، لم يكن لي منها مفر. لم أكن لأموت أبدا، لكن سأحيا مع من عاشوا من قبل أن يسير إنسان على ظهر الأرض.

كذلك قابلت في الحلم جدتها "بثأثيا-لأيا"، التي كانت تعيش في "يأهأ-نثلى" لثمانين ألف سنة. والتي عادت إلى هناك بعد موت أوبيد مارش. لم تكن "يأهأ-نثلى" قد تدمرت عندما لقي الناس الذين عاشوا على سطحها حتفهم وقتما غاصت ثانية إلى البحر. تأذت، لكنها لم تدمر. قالت إن ساكني الأعماق لا يمكن تدميرهم، وإن كان للسحر الباليوجيني للأسلاف المنسيين أحيانًا أن يوقفهم. إنهم الآن في سبات، غير أنهم إذا تذكروا يوما فسوف ينهضون بالحنين إلى جلال كثولو العظيم، ليشيدوا هذه المرة مدينة أعظم من إنزماوث. هم يخططون للانتشار، واستعادة الجزر الغارقة التي قد تساعدهم مرة أخرى على السطح، لكن ما عليهم الآن سوى الانتظار مرة أخرى. أما أنا، فبسبب جلب الموت لمن عاش منهم فوق سطح الأرض، يتوجب عليّ تقديم كفّارة، لكنها لن تكون فادحة على أي حال. كان هذا هو

الحلم الذى رأيت فيه الشوغوث لأول مرة، فأيقظني المنظر في نوبة من الصراخ. وفي ذلك الصباح رأيت في المرآة أني صرت دونما شك على سيماء إنزماوث.

لم أطلق النار حتى الآن على نفسي كما فعل خالي دوجلاس. اشتريت سلاحا آليا وكدت أقطع هذه الخطوة، لكن أحلاما بعينها أوقفتني. خفّت حدة الرعب الهائل أثناء النوم، وبدأت أشعر بشكل غريب أني أُساق إلى أعماق بحر مجهول، وبدلا من الخوف كنت أسمع أشياء غريبة فأرد بمثلها، وأستيقظ بنوع من الانسجام بدلا من الرعب. لا أظن أني أحتاج للانتظار حتى أتحول تماما كما انتظر معظمهم. ربما لو فعلت ذلك لأودعني والدي المصحة مثلما أودعوا ابن خالي الصغير المسكين. إن الأشياء الرائعة التي لم يسمع بها أحد من قبل في انتظاري هنالك بالأعماق وعلى أن أنزل إليها قريبا. لا-راليهل سيهاويها فلجاجن إد لاا!! لا، لا ينبغى أن أطلق النار على نفسي- لا يمكن أن أكون مضطرا لإطلاق النار على نفسي!

لابد أن أخطط لتهريب ابن خالي من مستشفى المجانين

في كانتون، ولابد أن نذهب سويًا إلى إنزماوث المظلمة ذات العجائب. يجب أن نسبح إلى ذلك الشعاب المرجاني الكئيب في البحْر ونغوص أسفل منه خلال اللجة السوداء إلى "يأهأ-نثلى" السيكلوبية ذات العماد، وفي ملجأ ساكني الأعماق ينبغي أن نبقى بين السحر والجلال إلى الأبد.

عن الكاتب

هوارد فيليبس لافكرافت Howard Phillips Lovecraft

كاتب وروائي أميركي اشتهر بكتابات الرعب والخيال العلمي.

ولد في ٢٠ أغسطس ١٨٩٠ في مدينة بروفيدنس - رود آيلاند..

حيث عاش معظم حياته فيها

لم يكمل دراسته ولكنه استطاع كسب المعرفة والعلوم من خلال القراءة المنزلية

كانت له معرفة واسعة بالتاريخ وبالجغرافيا وكذلك الحكايات والأساطير

له العديد من المقالات والقصص القصيرة وكان اهتمامه الأكبر هي كتابات قصص الرعب

ألهمت كتاباته العديد من الكتاب الأميركيين والعالميين.

يقال ان لوفكرافت هو من ابتكر شخصية عبد الله الحظرد.

توفي في ١٥ مارس ١٩٣٧ عن عمر ٤٧ عاما

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm